الألف كتاب
الثانى
١٤٧



من هم التتار؟

تأليف : د. أبرار كريم الله
ترجمة وتعليق : د. رشيدة رحيم الصبروتى

الهيئة المصرية العامة للكتاب

من هم التتار؟

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

رئيس التحرير

لمعى المطيعى

مدير التحرير

أحمد صليحة

الإشراف الفنى

محمد قطب

الإخراج الفنى

علياء أبو شادى

من هم التتار؟

تأليف

د. أبرار كريم الله

ترجمة وتعليق

د. رشيدة رحيم الصبروق

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

الفهرس

كلمة المترجمة

كثيرا ما نجد اسم « التتار » يستخدم فى المؤلفات التاريخية والأدبية وعلى صفحات الجرائد اليومية والمجلات مرادفا للهمج وأعداء الحضارة الانسانية ، وهو ظلم فادح لأولئك المسلمين الذين يحملون هذا الاسم الآن ، وهذه المواقف المؤسفة تتطلب منى بصفتى متخصصة فى اللغات الشرقية بوجه عام وفى اللغة التركية بوجه خاص ، أن أتدخل بترجمة هذا الكتاب الذى يقوم بتصحيح المفاهيم الخاطئة ألتى علقت بأذهان بعض المؤرخين والأدباء تجاه الشعب التتارى الحديث ، وقد يضع ذلك حدا لتلك الأحكام الظالمة التى تصدر ضده بسبب نقص المعلومات حول منطقة تسكنها الشعوب الناطقة بالتركية فى الامبراطورية السوفيتية المنهارة • كما تتطلب منى الأمانة العلمية والواجب الانسانى أن أشرح للقارىء العربى جذور مأساة الشعب التتارى الحديث ، وكيف أصبح اسم « التتار » دخيلا عليه ومنسوبا اليه دون ارادته •

والشعب الذى يطلق عليه اليوم اسم « التتار » يعود بجذوره الى الشعوب التركية التى تجمع فى أسرتهـا الكبيرة الأتراك والأذربيجان والكازاخ والقرغيز والأيغور والتركمان والقرافلباق والشورنس والياقوت والطوفين والبلكار والقراتشاى والنوغاى وتتار القرم وتتار بولاندا وتتار نهر الفولجا (البولجار) • ويعيش التتار فى مناطق كثيرة لأنهم أصبحوا متفرقين بعد سقوط امارة قازان ، لذلك يطلق عليهم أسماء وفق المناطق التى يشغلونها مثل : تتار الفولجا وتتار أورال وتتار سيبيريا • وكل هؤلاء التتار ينحدرون من البولجار الذين سجلتهم المصادر العربية باسم « بلغار نهر ايدل » (الفولجا) • وقد اكتسب هؤلاء البولجار اسم « التتار » نتيجة للحملة الدعائية التى وجهتها ضدهم سياسة قياصرة الروس الاستعمارية سنين طويلة • أما تتار القرم وتتار بولاندا وتتار لتفانيا وتتار رومانيا فهم يختلفون عن التتار ـ البولجار ، فالاستخدام الشامل لاسم « التتار » وتعميمه بالنسبة الى تلك الشعوب لا يمثل الحقيقة أو الواقع ، بل يؤدى الى خلط الأمور •

وكانت هناك الفترة فى التاريخ حين أطلق اسم « التتار » على

كل شعوب المنطقـة التى تقع شرقى موسكو مثل الأذربيجان والكازاخ والقرغيز والأيغور وحتى على الكوريين واليابانيين وشعوب جبال « تبت » ٠ وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين أطلق الأوربيون على الروس اسم « التتار » أو « الموسكوفيون » ٠ وأصبح اسم التتار يشمل شعوبا كثيرة ، لكن استخدامه الخاطىء بالنسبة لتلك الشعوب يخـالف الواقع ٠ أما التتار الذين يحملون هذا الاسم الآن فقد عرفوا فى التاريخ باسم « البولجار » وسجلتهم المصادر العربية باسم البلغار الذين استطاعوا فى القرن السابع الميلادى أن يقوموا بتكوين دولة بلغاريا العظمى التى ضمت شواطىء البحر الأسود وحوض نهر الدون وبحيرة أزوف ومناطق القوقاز الشمالية وشبه جزيرة الأناضول ٠ وسقطت هذه الدولة على يد قبائل الخزار وتفككت ، فذهب جزء من البلغار الى حوض نهر الدانوب حيث حكموا ما يقرب من مائتى سنة ، ثم ذابوا بين الشعوب السلافية ، لكنهم احتفظوا باسم البلغار الذى يطلق الآن على دولة بلغاريا الحديثة ٠ وتوغل جزء آخر من البلغار داخل جبال القوقاز فأصبح معروفا اليوم باسم البلكار والقراتشـاى ٠ واتجه جزء من البلغـار الى شبه جزيرة الأناضول ومصر ، وبقى جزء منهم فى نفس المناطق التى كانوا يشغلونها ، فانضموا الى دولة الخزار (الأذربيجان) ، وبدأ يطلق عليهم منذ ذلك الوقت اسم الخزار ، فذابوا مع مرور الزمن فى الشعب الشقيق لهم من حيث اللغة والجذور ، وفقدوا اسمهم الحقيقى ٠ وذهب جزء من البلغار عقب تفكك دولتهم الى شواطىء نهر ايدل (الفولجا حاليا) ، حيث كان يسكنها القبائل الأوغورية ــ الفينية والقبائل التركية الشقيقة لهم ٠ ولم يحدث انتقال ذلك الجزء من البلغار الى حوض نهر الفولجا أى حروب أو استخدام القوة لتعمير المنطقة ٠

وكان ذلك الجزء من البلغار الذى استقر على ضفاف نهر الفولجا ، مرتبطا بعرى الصداقة الوثيقة مع العرب والشعوب الاسلامية الأخرى ٠ وتعود جذور هذه العلاقات الى تلك الأزمنة حين كان البلغـار يشغلون شـواطىء البحر الأسـود ونهر الدون والقوقاز ٠ واستطاع البلغـار (البولجار) الذين كانت لديهم الخبرة فى نظم الحكم ، أن يقوموا خلال فترة تاريخية وجيزة بتكوين دولة لهم فى أقصى شرق أوربا ذاع صيتها بين بلاد أوربا وآسيا وأفريقيا ، واتجه التجار والرحالة العرب صوب هذه المنطقة ، وبدأ تأثير الحضارة العربية يزداد قوة بعد اعتناق البولجار الدين الاسلامى فى القرن التاسع الميلادى ٠ ومنذ ذلك الحين بدأ البولجار يشجعون شبابهم على السفر الى بغداد والقاهرة والمراكز الاسلامية الأخرى لتعلم الدين الاسلامى ٠ أما الاعلان الرسمى لاعتناق البولجار الاسـلام فقد تم فى عام ٩٢٢ م بواسطة الخليفة المقتدر الذى أرسل البعثة من

بغداد الى بلاد البولجار . وكان على رأس هذه البعثة ابن فضلان الذى ترك لنا تسجيلات قيمة فى تاريخ البولجار (بلغار نهر ايدل) وحضارتهم وديانتهم .

وكان ابن فضلان ورحالة العرب الآخرون الذين زاروا بلاد البولجار ، يكتبون فى مؤلفاتهم أن لديهم العلماء والأدباء والأطباء ، وأنهم يعرفون الكتابة ، فكانت لهم كتب منسوخة بخط اليد . وتغيرت حروف البولجار عقب اعتناقهم الاسلام الى الحروف العربية . وكان رحالة العرب ومؤرخوهم يشيرون فى مؤلفاتهم الى وجود المدارس فى المدن البولجارية والى انتشار فن الكتابة . وحين توثقت العلاقات بين البولجار والعرب بدأ البولجار يهتمون بالأدب العربى والفكر الاسلامى ، فأرسلت الى بلادهم كتب عربية كثيرة ، وأصبحت دولتهم احدى قلاع الاسلام فى أقصى المناطق الشمالية . وكانت دولة البولجار تمتاز بالمستوى الحضارى الراقى ، حيث شيدت الجوامع الشامخة والخانات والبيوت التى كانت تستخدم فيها التدفئة الهوائية . وكانت تمتد عبر المدن مواسير المياه . وأصبحت بلاد البولجار من أهم المراكز التجارية فى منطقة شرق أوربا ، مما أدى الى غيرة دولة روسيا الكييفية والموسكوفية التى أخذت تشن الحملات الوحشية على بلاد البولجار لنهب وسلب خيراتها وتدمير مدنها ومنشآتها الحضارية .

واستطاع البولجار أثناء الغزو المغولى أن ينتصروا فى البداية على جيوش الأعداء ، لكنهم لم يصمدوا كثيرا ، فسقطت دولتهم ، وأصبحت تحت سيطرة الامبراطورية الذهبية . وعلى الرغم من أن دولة البولجار قد تعرضت للخراب والتدمير ، الا أنها استطاعت أن تنهض من جديد لمعالجة أوضاعها ، حتى أصبحت من أهم المراكز التجارية والثقافية فى منطقة الشرق . وحين أصاب الضعف أوصال الامبراطورية الذهبية تحركت روسيا لتحقيق أطماعها التاريخية فى الاستئثار بدولة البولجار ، حتى سقطت عاصمة البولجار عقب الغزو الروسى تحت قيادة « فيودور بوسترى » (Feodor Pestriy) الذى أمر بحرق وتدمير العاصمة ، فنقل البولجار عاصمتهم الجديدة « قازان » على بعد ما يقرب من ١٠٠ كم شمالى العاصمة القديمة ، ومنذ ذلك الحين أطلق على دولة البولجار اسم « امارة قازان » . غير أن حملات الروس الوحشية لم تتوقف على أراضى قازان ، حتى سقطت قازان بدورها فى عام ١٤٣١ م . وفقدت استقلالها .

ومنذ ذلك الحين بدأت أسوأ فترة فى حياة الشعب البولجارى الذى تعرض ثلث سكانه للابادة الجماعية . وفقدت دولة البولجار كيانها ، ووقع جزء من أبنائه فى الأسر ، وفر جزء منهم الى جبال أورال وسيبيريا . وأحرقت كل المساجد ، وأصدرت السلطات الروسية قانونا بمنع اقامة

البولجار فى عاصمة قازان وضواحيها على بعد ٤٠ كم • وقد تعرض جزء من البولجار للتنصير قهرا ، وهم الذين أصبحوا معروفين باسم « كراشين » (أى النصارى) • وكان الروس يطبقون سياسة تنصير البولجار تطبيقا وحشيا واستمرت هذه السياسة علنا حتى عام ١٩١٧ م • وقد أدى تدمير امارة قازان الى تدمير كل المساجد والمؤسسات البولجارية الدينية والثقافية • وتمت ابادة التراث المنسوخ واعدام ما يقرب من ألف شخص من رجال الدين وعلمائه فاستطاع الروس بذلك فصل رأس الشعب عن جسده وقتله معنويا • وكانت لوحات مقابر المسلمين التى نقشت عليها الآيات القرآنية ، قد اتخذت حجر الأساس لبناء الكنائس ورصف الطرق ، وأخرجت عظام أمراء قازان من مقابرهم ، ثم أحرقت وأطلقت من المدافع كى لا يبقى شىء من آثارها • وهكذا نجد كل ألوان الهمجية بأنواعها تتضاءل أمام همجية الروس ووحشيتهم ، مما أشار اليه المؤرخون الروس أنفسهم • لكن الشعب لم يستسلم ، ولم ينحن أمام قسوة الروس ، واستمر سرا فى تعليم أبنائه القراءة والكتابة وأسس الديانة الاسلامية • وفى الفترات التاريخية العصيبة التى كانت تمر بها روسيا ، عاد الشعب الى بناء المساجد والمدارس الاسلامية ، لكن قياصرة الروس لم يتركوا فرصة النهوض للشعب ، اذ كانوا يرسلون فيالق من جيوشهم لحرق المساجد ونهب وتدمير المنشآت الثقافية وهتك أعراض النساء • وبعد ثورة « بوجاتشوف » التى اشترك فيها التتار (البولجار) ، اضطرت الامبراطورة « كاترين الثانية » أن توافق على مؤتمر للمسلمين ، ومنذ ذلك الحين لم يمنع بناء المساجد •

ومنذ القرن السادس عشر الميلادى بدأت السلطات الروسية ورجال الكنيسة والمبشرون يسعون الى تقديم البولجار أمام الرأى العام على أنهم بقايا الجيوش المغولية أو بقايا الامبراطورية الذهبية ، فأطلقوا على البولجار اسم « التتار » بسبب عداوتهم للدين الاسلامى ، ومن هنا بدأت هذه الفكرة تتسرب من مؤلفات المؤرخين الروس الى المؤلفات الأدبية حتى تشرب بها الأدب الروسى الذى حظى بالشهرة العالمية واهتمام الغرب • وكان البولجار الذين غير الروس اسمهم الحقيقى الى التتار ، يملكون فى بداية القرن العشرين أكثر من ثلاثة عشر ألف مسجد ونفس عدد المدارس ، بالاضافة الى المراكز العلمية والدينية • وكان التتار أول من بدأ استخدام طباعة الكتب بين الشعوب الناطقة بالتركية • وقد احتل القرآن الكريم مكانة خاصة فى طبع ونشر الكتب التتارية • وكانت دور النشر تقوم باصدار مؤلفات علماء الشرق مثل الغزالى والكندى والروداكى وآخرين ، وظلت الحروف العربية تستخدم حتى قيام الثورة البولشيفية ، وكانت المكتبة التتارية تحتوى على قدر كبير من المؤلفات فى العلوم الاسلامية باللغة العربية • ولعب التتار دورا هاما فى تقريب بعض الشعوب الناطقة

بالتركية الى الاسلام مثل الباشكير والكازاخ والقرغيز والقراقلباق • وقد أثار تأثير التتار على الشعوب الناطقة بالتركية وخاصة نشاطهم فى نشر الثقافة الاسلامية ، قلق السلطات الروسية ، فأصبحت سياستهم أشد قسوة فى اضطهاد التتار وتدمير مؤسساتهم التعليمية • ومن هنا بدأت حملة لتلفيق تهمة جديدة للتتار بنشر الايديولوجبة « بان ـ اسلامية » (الجامعة الاسلامية) و « بان ـ تركية » (الجامعة التركية) •

أما حين أمسك الشيوعيون بزمام الحكم فى الامبراطورية السوفيتية بدأت موجة جديدة لابادة التتار جسديا وروحيا ومعنويا ، ولكنها كانت هذه المرة أشد قسوة ومهارة ودهاء • وتم اعداد التخطيط الاستراتيجى لطرد التتار من ديارهم ، وبدأ تنفيذ هذه الخطة بطرد تتار القرم وتشتيتهم بين شعوب الاتحاد السوفيتى بهدف تذويبهم • أما تتـــار نهر الفولجا (البولجار) فقد أنقذتهم من هذه الابادة الجماعية وفاة الدكتاتور ستالين ، ولم تجرؤ السلطات الروسية فى موسكو على تنفيذ هذه الخطة بعد وفاة الطاغية فى عام ١٩٥٣ م •

وما زال التتار متشبثين باستقلالهم ، فهم يناضلون من أجل الحرية رغم ظروفهم الصعبة وتعرضهم للملاحقـة المستمرة من جانب السلطات الروسبة • وعلى الرغم من تحركات موسكو الخفية ومكايد الديمقراطيين الروس ومؤامراتهم ، أعلن التتـــار فى ٣٠ أغسـطس عام ١٩٩٠ م • استقلالهم الذى أكد عليه استفتاء الرأى العام فى ٢١ ديسمبر عام ١٩٩٢ م• ويمر الشعب التتارى بظروف اقتصادية وسياسية صعبة ، ومع ذلك بدأ ترميم المساجد ، وادخال مادة الدين الاسلامى فى البرامج التعليمية ، وطباعة الكتب الدينية • وهناك صراع مرير من أجل فتح المدارس التتارية بلغتهم القومية ، وادخال لغة التتار فى التعليم العـالى ، واعداد الكادر القومى فى كافة المجالات العلمية والتقنية والفنية • ويقول مؤلف هذا الكتاب : « لدى ثقة تامة فى امكانات الشعب التتارى الذى يملك تاريخا عريقا سجل لنا البطولات فى كفاحه ونضاله من أجل الحرية والاستقلال • ذلك الشعب الذى ترك لنا آثارا أدبية عظيمة ، يجب أن ينتصر ويأخذ مكانته اسوة بكافة شعوب العالم • وأتمنى أن كتابى هذا سوف يساعد القارىء على التخلص من تلك الافتراءات التى أتى بها أعداء شعبى » •

أما مؤلف هذا الكتاب فيعيش ما يقرب من ثلاثين عاما تحت رقابة المخابرات الروسية المشددة بسبب آرائه وأفكاره ، وهو يحاول أن يعرض تاريخ شعبه عرضا علميا واقعيا ، وأن يدافع عن حرية واستقلال شعبه الذى أصبح يعامل كأقلية قومية فى بلاده التى يعيش فيها قرونا طويلة ، وان شئنا الدقة نسـتطيع أن نقول انهم يعدون مواطنين من الدرجـة الثانية • وقد تعرض الكاتب لسلسلة الاضـــطهادات بأمر من الرئيس

خروشوف ، وتم رفته من وظيفة مدرس بجامعة قازان · وعلى الرغم من ذلك استطاع الكاتب بأبحاثه وعمله الدءوب أن يرفع مكانته وينال تقديرا فى الأوساط العلمية ، حتى فاز بلقب « الأستاذ الاكاديمى » ، وأصبح عضوا بأكاديمية العلوم فى جمهورية تتارستان (روسيا الاتحادية) · وقد سجل اسمه فى بعض الموسوعات العالمية بالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ، كما أصبح الكاتب عضوا باللجنة العليا لمجلس الفرسان العالمى بمدينة سيدنى (استراليا) وفاز بلقب « ماركيز طوران » (Markiz of Turan)

وبعد ، فلعلى أكون قد صححت بترجمة هذا الكتاب بعض المفاهيم الخاطئة التى علقت بأذهان الأدباء ، والمؤرخين تجاه الشعب التتارى الحديث · وأرجو أن تكون هذه الترجمة قد استطاعت أن تكشف للقارىء العربى بعض جوانب مأساة ذلك الشعب المسلم الذى يملك تراثا عميقا · وأسأل الله أن يلهمنى السداد فى الفكر والعمل وهو حسبى ونعم الوكيل ·

د· رشيدة رحيم /٢١ فبراير ١٩٩٣ م

اسكندرية

« ان تفتيت الذرة أهون أحيانا من القضاء على الخرافات » ·

اينشتاين

مقـــدمة

يطلق على الشعوب أسماء مختلفة مثل « العرب » و « الاغريق » و « الفرس » ···· لكن من أطلق هذه الأسماء ؟ وما الذى تحمله فى داخلها من المعانى ؟ ومن أين أتت هذه التسميات ؟ ولماذا يعرف شعب واحد بأسماء مختلفة ؟ ثم لماذا يطلق أحيانا اسم واحد على شعوب مختلفة ؟ وما تفسير ظاهرة تغيير أسماء الشعوب ؟ ·

انها تساؤلات مهمة والاجابة على سؤال مثل : « لماذا لم يطلق على شعب معين الا هذا الاسم ؟ » ليست بسيطة بل مستحيلة أحيانا ، لأن هناك مناقشات علمية استمرت قرونا حول تحديد أسماء بعض الشعوب · وتتعلق تسمية أى شعب بتاريخه وماضيه ، لذلك دراسة جذور التسمية لها أهمية كبرى فى تحديد اسم الشعب وأصوله · والاسم يجب أن يحتوى على مواصفات معينة للشعب ، لكن ليس كل تسمية تمثل اسما حقيقيا له ، مما يؤدى الى تفسيرات خاطئة لتاريخه وتشويه أصوله ·

ويعود اسم التتار فى رأينا الى تسميات أكثر تعقيدا ، لها تاريخ صعب وعتيق · وما أكثر الشعوب التى سميت بالتتار ! وما أبشع السمات والصفات التى علقت بكل من حمل هذا الاسم من بداية العصور الوسطى حتى يومنا الحاضر سواء أكان فى الشرق أم الغرب ! لقد رأينا فى الحرب العالمية الثانية ذلك الرعب الذى كان ينتاب سكان بلاد أوربا الشرقية كلما ذكر اسم التتار · وفى أيامنا هذه تستطيع أن تشاهد ما يشبه ذلك ، فقد عاد زميل لنا من رحلة سياحية الى بولندا وتشيكوسلوفاكيا وحكى فى حيرة شديدة كيف التف حوله الناس عندما سمعوا أنه تتارى الأصل ، فأخذوا يستعرضـــون له معلوماتهم « الرائعة » تجاه الشعب التتارى ، فصوروه فرسانا ذوى عيون ضيقة مرتفعة اللحاظ ، ينطلقون فوق جيادهم ملوحين بسيوفهم والخناجر فى أفواههم· ولا يزال التتار حتى

الآن فى مفهوم الأوربيين وحوشا وهمجا قاموا بغزو أراضيهم فى القرن الثامن • لكن هذا الاعتقاد لا يقتصر على بلاد أوربا فحسب ، بل نجد « بيلوزورسكايا » ، وهى باحثة فى التاريخ المعاصر ، تقول : « اسأل كل من تعرفه عن أصول التتار الذين يسكنون ضفاف نهر الفولجا ! ستجد تسعين فى المائة يذكرونك بالغزو التتارى ــ المغولى » (*)

والكاتبة لها الحق فيما تدعيه ، فقد سمعنا نفس الشيء من الناس فى كافة أرجاء بلادنا أثناء قيامنا برحلات مختلفة ، ومن بينهم عدد لا بأس به من المثقفين : كالأطباء والمهندسين والكتاب والمدرسين والعلماء وغيرهم من الذين يحتلون مراكز قيادية فى الدولة • وكلهم يؤكدون بثقة تامة متخذين ما يردده كبار الكتاب دليلا لهم ، أن تتار اليوم ليسوا سوى سلالة الغزاة المغول ، وكل المحاولات لتغيير اعتقادهم باءت بالفشل ، لأن زعزعة الثقة فى المكتوب أمر صعب للغاية • ولا شك فى أنهم ليسوا مذنبين فيما يدعون ، اذ أنهم تعلموا هذا من المدارس والكليات ، بالاضافة الى ما يوجد فى المأثور الشعبى والأدب الروسى الذى يؤكد اعتقادهم •

ونجد فى كتب تاريخ الاتحاد السوفيتى ، سواء أكانت المدرسية أم الجامعية ، من ينسب التتار الى المغول ، بل يخلط بينهم • وللأسف الشديد نجد ذلك المفهوم فى أبحاث بعض المؤرخين ! أضف الى ذلك الأبحاث التاريخية التى نشرت ولها شعبية لدى القراء • ويشير المؤرخ السوفيتى « جيمادى » الى تلك الظاهرة قائلا : « لا يزال المفهوم الشمولى للتتار باقيا فى أدبنا التاريخى ، مع أن التتار بهذا المفهوم ليس لهم وجود الآن• وكثيرا ما نرى فى الكتب الأدبية ألفاظا وعبارات مثل « التتار » و « التتار الغزاة » و « جحافل التتار » وما يشبه ذلك • والقارىء بدوره يعزوهم الى التتار الذين نراهم اليوم ، وهو لا يدرك أن الحديث لا يدور حول المغول والتتار ، وانما حول جيوش جنكيز خان (١) وباطى » (٢) (**) ثم يشير الكاتب الى ضرورة وضع حد للاستخدام الخاطىء لاسم التتار ، « لأن ذلك يشوه الحقائق التاريخية ويخالف وقائع الأمور » •

وبطبيعة الحال فان مثل هذا التصور عن التتار الذى تؤيده بعض الأبحاث فتغذيه ، يؤدى الى انزال الشعب التتارى الذى نراه اليوم ، فى موضع خاطىء ، والى غرس الكراهية لدى الشعوب تجاههم ، وفى الوقت نفسه يولد لدى الشعب التتارى الشعور بالاستياء ، مما يخالف

(*) Belozerskaya, O. : Voljskiye tatari. Znaniye sila. 1970. 7. ps. 34-35.

(**) Gimadi. H. : Voprosi istorii. 1954, 8 s. 116.

مبدأ التآخى والتفاهم بين الشعوب التى تشارك جنبا الى جنب فى بناء المجتمع الجديد ، لأن تشويه تاريخ الشعوب وأصولهم أو تشويه عاداتهم وتقاليدهم أمر مرفوض تماما ٠

والهدف من هذا البحث هو تأمل الظروف والأسباب التى أدت الى ظهور مفاهيم وتصورات خاطئة تجاه اسم التتار ، والى الحاق الشعب التتارى بصورة مستمرة الى المغول ٠ وبذلك سوف يساعد البحث على التغلب على تلك المفاهيم الخاطئة وغير العلمية ، مما يكون له آثار طيبة فى التفاهم بين الشعوب وتقربهم من أجل مستقبل أفضل للانسانية ٠

لقد أصبح اليوم تاريخ أصول التتار أمرا معقدا للغساية ، وكأنما حدث ذلك بفعل فاعل ، وتراكمت فى كتب التاريخ استخدامات خاطئة لاسم التتار الذى أطلق على شعوب كثيرة فى الشرق ، ٠لذلك قام المؤلف بمراجعة دقيقة لكل ما نشر عن التتار ، فوجد أن عددا كبيرا منه ليس له أدنى صلة بموضوع دراسته ٠ ومن ناحية أخرى احتاجت دراسة صلة « البولجار » (٣) (وهم تتار اليوم) بشعوب آسيا وأوربا ضرورة التعرف الكامل على الأبحاث التى تعود الى تاريخ شعوب كانت تسكن ومازالت تسكن حتى الآن منطقة تمتد من نهر « ايرتيش » حتى نهر الدانوب ٠ وكان المؤلف حريصا أشد الحرص فى كل رحلاته سواء أكانت علمية أم ترفيهية ، أن يلتقى بممثلى الجيل القديم ٠ وقد توصل الكاتب فى النهاية الى أن الشعب الذى يحمل اليوم اسم التتار يعود بجذوره الى البولجار ــ الأتراك ٠ وكثيرا ما وجد المؤلف هؤلاء الناس يعبرون عن أسفهم واستيائهم تجاه عدم التوافق والتجانس بين أصل الشعب وتسميته الحديثة ٠

ان الأفكار والاحتمالات التى استنتجت من الأبحاث استغرق عملها سنين طويلة ، قد وجدت لها صدى عميقا فى مناقشات علمية مع الزملاء فى العمل ومع علماء التخصصات الأخرى ٠ وكثيرا ما كان المؤلف يستشير أصحاب التخصصات المختلفة أثناء قيامه بالبحث ، لذلك فان الكاتب يعبر عن جزيل الشكر للمؤرخ الأستاذ الدكتور جوميلوف الذى قدم ملاحظاته القيمة التى ساعدت على التغلب على ما غاب عن النظر وعلى تصحيح بعض الأخطاء ، كما يقدم الكاتب جزيل شكره لكل من شاركه فى البحث من الكتاب وأساتذة الأدب والتاريخ والفلسفة والحقوق بملاحظاتهم ونصائحهم المفيدة ٠

أصـــول التتـــار

ان اسم الشعب وهو رمز له ـ ان صح هذا التعبير ـ يحتوى على العوامل الأيديولوجية (٤) ، ومن ثم فان تحديد اسمه الحقيقى يعد من أهم القضايا المعاصرة • أما الاسم الدخيل على الشعب أو المنسوب اليه دون ارادته فيؤدى الى تشويه الحقائق التاريخية • ونجد هذا بوضـــوح فى تاريخ اسم « التتار » ، اذ أن الخلط بين الشعب الذى يحمل هذا الاسم اليوم ، وبين التتار ـ المغول بدأ يعطى ثمارا مريرة ، وأدى الى محاولات بعض الكتاب والمؤرخين لعرض تاريخ الامبراطورية الذهبية فى صـــور مثالية • وفى قرار اجتماع اللجنة العلميـــة الذى عقد فى ٩ أغسطس عام ١٩٤٤ ، تم بيان الأخطاء الفادحة فى تاريخ تتارستان (٥) ، فأكدت اللجنة على ضرورة وضع الأسس العلمية لتحديد أصول الشعب التتارى ، وتجنب هذه الأخطاء • ولم يمض وقت طويل حتى فوجىء المؤرخون عند اعدادهم لتاريخ التتار بعدد من المشاكل التى جعلت تقـــديم التاريخ الحقيقى لجمهورية تتارستان أمرا مستحيلا دون حلها أو عرضها عرضا منطقيا • ومن هنا أصبحت قضية تحديد أصول التتار من أكثر القضايا حيوية •

وقد انقسم العلماء فى تحديد أصول التتار الى فرق ثلاث : الفريق الأول ينسب تتار مدينة قازان الى هؤلاء المغول ـ التتـــار الذين قاموا بغزو روسيا وبلاد أوربا الشرقية فى القرن الثالث عشر • ويذهب الفريق الثانى الى أن التتار الذين نراهم اليوم ، ليسوا سوى خليط من القبائل التركية فى وسط نهر الفولجا وغزاة المغول • وأخـــيرا يؤكد الفريق الثالث على أن تتار قازان هم سلالة البولجار الذين اكتسبوا من المغول مجرد اسم « التتار » (*) •

لقد أصبحت قضية تحديد جذور التتار من أهم قضـــايا الدولة ، والدليل على هذا عقد المؤتمر العلمى فى ٢٥ ـ ٢٦ أبريل من عام ١٩٤٦

(*) Proishojdenie Kazanskih tatar, Kazan, 1948 s. 3.

بمدينة موسكو الذى قامت باعداده أقسام التاريخ والفلسفة بأكاديمية العلوم ومعهد اللغة والأدب والتاريخ بجامعة قازان ، وهذه الفترة من أصعب الفترات التى كانت تمر بها الدولة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية من أجل اصلاح الاقتصاد القومى • وقد ركزت الجلسة العلمية الأولى اهتمامها على تحديد أصول الشعوب فى الاتحاد السوفيتى ، واشترك فى هذه الجلسة أكبر العلماء فى التاريخ والآثار والاثنوغرافيا والأنثربولوجيا وعلم اللغة والتخصصات الأخرى • ونكتفى هنا بمجرد ذكر النتائج الأساسية لتلك الندوة العلمية ، لأن مادتها قد نشرت بالتفصيل على صفحات الجرائد والمجلات •

وكان المؤرخ سميرنوف (A. P. Smirnov) وهو عالم الآثار فى الوقت نفسه ، من أبرز وأهم المحاضرين فى تلك الجلسة • وقد كرس العالم كل نشاطه العلمى لدراسة تريخ البولجار الذين كانوا يسكنون ضفاف نهر الفولجا ، وأكد فى الجلسة على أن « الغزو المغولى لم يحدث تغييرا ذا أهمية فى الشعب البولجارى » ، وعقب الغزى المغولى لاراضى البولجار « قامت بين البولجار والمغول علاقة تشبه علاقة روسيا مع الغزاة •• وليس هناك مجال للحديث عن أى تغيير سكانى فى بولجاريا(٦)، اذ لا يوجد لذلك أى أدلة » (*) • لقد أثبت سميرنوف من خلال تحليلاته للآثار التى تعود الى مرحلة ما بعد الغزو ، أن حضارة البولجار قد استمرت فى تطورها الطبيعى دون أى تغيير • وحين قدم العالم سميرنوف عرضا عن أنثربولوجيا التتار الذين نراهم اليوم ، أشار الى أنهم يمثلون الجنس الأوربى ، وأن نسبة ضئيلة منهم يحملون الملامح المغولية ، وأن « المغول بعد أن أتوا بالسيف والنار الى ضفاف نهر ايدل (الفولجا) لم يستقروا بين البولجار (تتار اليوم) ، ولم يؤثروا تأثيرا ملحوظا على الشعب » • ويؤكد سميرنوف على أن الشعب التتارى يعلم أصوله جيدا ، اذ أنهم أطلقوا على أنفسهم قرونا طويلة اسم « البولجار » ، وحتى المخطوطات الروسية التى تعود الى القرن السادس عشر ، لم تطلق عليهم اسم « التتار » ، بل « البولجار » • ويشير العالم معتمدا على الحقائق الأنثربولوجية والآثار والمأثور الشعبى وما بقى من الآثار الأدبية والفنية وآثار الفن المعمارى ، الى أن حضارة البولجار فى فترة الامبراطورية الذهبية بنيت على أساس الحضارة الاقليمية للعصور السابقة • واذا قمنا بالمقارنة بين حضارة امارة قازان أو حضارة الشعب التتارى الذى نراه اليوم ، تأكدنا بسهولة ويسر أن حضارة تتار قازان هى امتداد لحضارة

(*) Proishojdeniye flazanskih latar. Kazan. 1948. s 22.

البولجار ، وأنها من خلال تاريخها المديد قد تشربت مثل حضارة أى شعب آخر بعدد كبير من التأثيرات المختلفة » (*) ٠

وفي هذه الجلسة نجد أيضـــا الأســـتاذ الدكتور فوروبيوف (N. I. Vorobyev) وهو عالم متخصص في التـــاريخ والانثوغرافيــا للشعب التتــارى والشعب التشوفاشى (٧) ، ويؤكد على أن « التحليلات لأسلوب حياة التتار تمنح حق اعتبارهم من الشعوب الناطقة بالتركية ، وأنهم من سلالة البولجار » (**) ٠

وقد أكد العالم المشهور زالاى (L Zalay.) المتخصص فى لغة الشعوب الناطقة بالتركية ، أن لغة التتار الذين نراهم اليوم تعد استمرارا مباشرا وطبيعيا للغة البولجار ٠ وكان زالاى يعتمد فى حديثه على الدراسة المقارنة بين ما بقى من الآثار للغة البولجار ولغة الشعب التتارى الحديث ، وهو بذلك يشير الى بطلان ما يدعيه بعض علماء اللغة أن لغة البولجار قد انقرضت ٠ يقول زالاى : « ان المرحلة الأولى لتكوين لغة التتار تعود الى المرحلة البولجارية ، والدليـــل على هذه وحـــدة اللغة للشعب التتارى التى ما زالت تستعمل حتى اليوم بكافة لهجاتها ، وما بقى من لغة البولجار المكتوبة » (***) ٠ اذن اللغة التتارية الحديثة قد تشكلت وتطورت من اللغة البولجارية والقبجاقية ، وكل منهما تعود الى مجموعة لغوية واحـــدة هى اللغة التركية ٠

ونجـــد عالم التركيـــات يعقوبفسكى (A. Y. Yakubovskiy) وهو من أبرز علماء التاريخ وعضو ـ مراسل بأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى ، يطرح فى خطابه الذى ألقاه فى الجلسة ، سؤالا : « ما صلة التتار الذين نراهم اليوم بتتار الامبراطورية الذهبية ؟ » ثم يجيب على هذا السؤال قائلا : « نجد فى أبحاث بعض المؤرخين ظاهرة الخلط بين تواريخ الشعوب المختلفة ٠ ان سكان جمهورية تتارستان الذين يسكنون مساحة بلاد البولجار القديمـة ، لم يرحلوا عنهـا ، ولم يتم القضـاء عليهم ، بل ما زالوا يعيشون هناك حتى يومنـــا هذا ٠ وفى الحقيقـة نسـتطيع القـول وبكل تأكيد ان الأساس لشعب جمهـورية تتارستان الشقيقة يتشكل من البولجار القدماء الذين ضـــموا الى أنفسهم عناصر جديدة لم تدرس حتى الآن ، والذين اكتسبوا اسم التتار فيما بعد » (****) ٠

(*) Ibid p. 16.

(**) Ibid. p. 88.

(***) Ibid. p. 88.

(****) Ibid. p. 132-133.

ويشير الأستاذ الأكاديمى جريكوف .(B. D. Grekov.) عند عرضه لنتـــائج المؤتمر الى أن أغلبيه المشـــتركين فى المؤتمر الذين قاموا بالقاء محاضراتهم ، قد اتجهوا الى رأى واحـــد ، فتأتى النتيجة تلقائية » (*) كما أشار العالم الاكاديمى الى أن هذه المناقشات طرحت أسئلة جديدة حول أصول شعوب أخرى تسكن ضفاف نهر الفولجا ، ودرجة قرابه لغة تلك الشعوب وما يشبه ذلك ٠

لقــد توصل المؤتمر العلمى الى نتيجة رئيســية وهى أن الشعب التتارى الذى نراه اليوم ، بأصوله وجذوره ليس له أدنى صلة بالمغول ، ولكنهم أحفاد حقيقيون للبولجار ، وأن تسميتهم باســم التتار خطــأ تاريخى ٠ وقام المؤتمر بالتوصية على تدعيم الأبحاث من أجل اعداد جديد لتاريخ الشعب التتارى ، وعلى ضرورة اعتمادها على الحقائق العلمية فى شتى التخصصات ، ووضع حد للمقارنة التى لا أساس لها ، بين الشعب التتارى الذى نراه اليوم ، وبين التتار ــ المغول ٠

وقد مضى منذ ذلك الحين ثلاثون عاما ، وتم تنفيذ جزء كبير من توصـــيات المؤتمر ، ونجــد على سبيل المثـــال الأستاذ الدكتور سميرنوف ينشر كتاب « بولجار نهر الفولجا » فى عام ١٩٥١ الذى يعتمد على مادة علمية ضخمة فى علم الآثار والانثربولوجيا والنقد الفنى والمأثور الشعبى ٠ ويعد كتابه هذا خلاصة أبحاثه وعمله الذى استمر سنين طويلة فى دراسة واعداد تاريخ البولجار ٠ وقد اعتمد الكاتب فى هذا الكتاب على وثائق علمية جديدة ، وأيد تأييدا كاملا نتائج المؤتمر لأصول الشعب التتارى الحديث ٠ ويشير العالم فى كتابه الى « أن هنـــاك صــلة وثيقة تربط البولجار مع تتار مدينة قازان ، وهى تظهر بوضـــوح فى الأبحـاث الأنثربولوجية وفى الآثار التاريخية وما بقى من الآثار المكتوبة ٠ ثم هناك دليل قوى آخر يؤكد هذه الصلة ، وهى شجرة النسب التى احتفظ بها كثير من الأسر التتارية ، والتى تنتهى الى البولجار » (**) ٠ ونجد الصلة الوراثية التى تربط بين التتار والبولجار ، تبدو بوضوح فى أيامنا هذه ، « فاذا قمنا بالمقارنة بين حضارة البولجار والشعب التتارى الحديث لوجدنا أن حضارة البولجار هى الأساس الذى قامت عليه حضارة التتار » (***) ٠ ويشير المؤلف الى استمرار مظاهر حياة البولجار عند الشعب التتارى الذى نراه اليوم ، فى الملبس وأسلوب انشاء المبانى وفى فن الزخرفة والمصوغات

(*) Ibid. p. 158

(**) Smirnov, A. P. : Voljskiye bulgari, M. 1951. s. 75.

(***) Ibid. p. 76.

وما يشبه ذلك ٠ يقول المؤلف : « لاشك في أن شكل المصوغات الحديثة قد قام وتطور على أساس الفن البولجارى ٠ وعند تحليل المصوغات نجد أوجه الشبه تفوق الشكل العام ، اذ يتضح ذلك من الجزئيات وأسلوب الزخرفة نفسه » (*) ٠

واستنتاجات سميرنوف تؤيدها حقـائق جـديدة فى أبحاث عالم النقد الفنى المشهور وليبيف وهى : « زخرفة تتار قازان » ، و « الفن القديم وفن العصور الوسطى على ضفاف نهر الفولجا » ، و « فن العمارة والديكور عنـد التتار ٠ المسكن الريفى » (**) وقد لقيت نتـائج المؤتمر تأييـدا كاملا فى أبحاث جننج (V. F. Gening) ، وعند خاليكوف فى بحثه « البولجار القدامى على ضفاف نهر الفولجا » (***) ، وفخر الدينوف فى بحثه « آثار الفن المعمارى لدولة البولجار ومساحتها على ضفاف نهرى الفولجا وقاما » (****) كما نجـد هذا التأييد فى أبحاث علماء التاريخ والآثار مثـــل ســـتاروستين (N. P. Starostin) ، وبيترينكو (A. G. Petrenko) ، وكازاكوف (Y. P. Kazakov) ، وحليبنيكوفا (T. A. Hlebnikova) ، وخاليكوفا (Y. A. Halikova) ، وبوليسكيح (R. Polesskih) ٠ وكل هـذه الأبحـــاث قد اعتمدت على المصـــادر العلمية الجديدة ، وتمت اضافتها الى المكتبة العلمية فى النصف الثانى من القرن العشرين ٠

ونجد رأى العالم زالاى فى أن لغة التتار الحديثة هى استمرار مباشر للغة البولجار ، يؤكده يوسبوف فى كتابه « مقدمة الى العبارات المقتبسة من اللغة البولجارية ـ التتارية » (*****) ، حيث يقدم الباحث تحليلا للغة الآثار المكتوبة التى تعود الى دولة البولجار على ضفاف نهر الفولجا والى امارة قازان ٠ كما نجد أحمديانوف فى بحثه « طبيعة الانتقالات الصوتية فى اللغات التركية » (******) ، وبيشيف فى « صوتى (ر) و (ز) فى

(*) Ibid. p. 78.

(**) Valeev. F. H. : Ornament kazanskih tatar. Kazan, 1969.
Drevnee i srednevekoxoye iskusstvo Srednego Povoljya, Yo hkar-Ola. 1975.
Arhitekturno-dekorativnove iskusstvo kazanskih tatar. Selskoye jilishe. Yoshkar-Ola. 1975.

(***) Halikov. A. H. : Ranniye bolgari no Volge, M. 1964.

(****) Fahruddinov. R. G : Arheologicheskiya pamyatniki Voljsko-Kamskoy Bulgarii i eyo teritoriya. Kazan. 1975.

(*****) Yusupov. G. V. : Vvedeniye v bulgarsko-tatarskuyu epigrafiku. M. 1960.

(******) Ahmedyanov. R. G. : K voprosu o prirode zvukovih perehodov v turkskih yazikah. — Voprosi yazikoznaniya. 1961. 6.

اللغات الالتائية » (*) ، وحكيمزيانوف فى « لهجات مما بقى من الآثار للغة بولجار الفولجا » (**) ، وآخرين يؤكدون مرة أخرى على أن لغة البولجار لم تنقرض ، فهى بكونها احدى لهجات اللغة القبجاقية ما زالت مستمرة حتى اليوم فى لغة الشعب التتارى • وبحث أليكسييف عن « دراسة أصول الشعوب الناطقة بالتركية بأوربا الشرقية فى ضوء علم الجماجم » من الأبحاث الأنثربولوجية الحديثة التى تؤكد نتائج المؤتمر • يقول أليكسييف : « ان الشكل الأنثربولوجى للملامح تتار قازان هو نفس الشكل الأنثربولوجى الذى كان يمتاز به البولجار فى مدينتى سوفار (٨) وبولجار » (٩) (***) •

ويبدو من أول وهلة أن مشكلة أصول تتار قازان قد انتهت ، وتم حلها من كافة النواحى ، كما تم القضاء على الاستخدام الخاطىء لاسم التتار ، لكن ديناميكية الرأى السائد ، وان كان باطلا ، قد بلغ ذروة العناد ، ولم يتغير فى مجال الأدب والصحافة الا الشىء القليل ، ولاتزال مؤلفات بعض المؤرخين تنسب التتار الى المغول كما كان الأمر من ذى قبل • وللأسف الشديد نستطيع القول ان عدد المؤلفات من هذا النوع لايقل بل يزداد ، وان هذه الأخطاء تتكرر فى أغلب الأحيان عند عرض الكتاب المؤرخين للتاريخ العام ، أو لتاريخ الدولة الروسية وشعوب الاتحاد السوفيتى ، يستثنى من ذلك أبحاث علماء التركيات المتخصصين فى هذا المجال ، أى الذين يعرفون اللغة والاثنوغرافيا والحضارة والتاريخ للشعب التتارى •

وقد تم نشر نتائج المؤتمر العلمي لمناقشة أصول التتار فى كتاب مستقل ، لكن عدد النسخ كان قليلا لايتجاوز ألف نسخة • كما تم توزيع هذه النسخ فى نطاق ضيق ، ولم تتداولها أيدى جماهير عريضة من المؤرخين والعلماء ، وأيدى القراء على وجه الخصوص ، ونستطيع القول فى الوقت نفسه انه لم تبذل أى جهود لترويج نتائج المؤتمر المذكور أعلاه فى الأبحاث التى نشرت مؤخرا فى علم الآثار والاثنوغرافيا وعلم اللغة والنقد الفنى ، ولم يظهر أى عمل منفرد حول دراسة أصول التتار يستطيع

(*) Bii hev. A. Sootvetstviye R/Z v altayskih yazaikah. V kn. Issle dovaniya po uygurskomu yaziku. Alma-Ata, 1965.

(**) Hakimzyanov. F. : Sledi dialektov v yazike pamyatnikov Voljskoy Bulgarii. — Sovetskaya turkologiya, 1974, 4.

(***) Alekseev, V. P. : Ocherk proishojdeniya turkskih narodov vostochnoy Yevropi v svete kraniologii. — Voprosi etnogeza turkoyazichnih narodov Srednego Povolija. Kazan. 1971. s 248.

زعزعة استمرارية الرأى السائد وجبروته ، الا بحث صغير للأستاذ الدكتور خاليكوف (A. H. Halikov.) تم نشره فى عام ١٩٧٥ باللغة التتارية • وهناك بعض المؤرخين الذين يعرفون اختلاف التتار عن المغول ، اكتفوا فى أبحاثهم بمجرد ذكر — بين قوسين — أن التتار الذين نراهم اليوم ليس لهم أدنى صلة بالجيوش التتارية — المغولية ، لكنهم فى الوقت نفسه كثيرا ما يستخدمون اسم التتـــار بمعنى الغزاة المغول لذلك لايستطيع القارىء أن يتصور أنه الى جانب الشعب التتارى يوجد تتار آخـــرون ، لأنه لايعرف سوى التتار الذين نراهم اليوم أى تتار نهر الفولجا وجبال أورال وسيبيريا •

ونجد كل المؤرخين الروس قبـــل الثـــورة البولشفية والمؤرخين السوفييت الجدد بكونهم المتخصصين فى تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية لا يخلطون بين التتار والمغول • ونفس الشىء نستطيع قوله بالنسبة الى علماء الآثار والاثنوغرافيا الذين درسوا ماضى شعوب أواسط نهر الفولجا• ويشير مؤرخ التاريخ المعاصر « توكاريف » وهو فى الوقت نفسه من أبرز علماء الاثنوغرافيا ، الى أن « الرأى المتبع الذى يقول ان تتـار الفولجا سلالة مباشرة للغزاة المغول الذين قاموا بغزو أوربا الشرقية تحت قيادة هولاكو فى القرن الثالث عشر ، هو رأى باطل تماما » (*) •

ونرى التناول الخاطىء لقضية التتار فى أبحاث هؤلاء العلماء الذين لم يدرسوا تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية على ضفاف نهر الفولجا ، ومنهم على سبيل المثال « كوزلوفا » الأستاذة الجامعية فى الاثنوغرافيا التى تكتب أن « التتار بجذورهم على صلة وثيقة بســكان الفولجا المحليين ، وأن البولجار شكلوا عنصرا أساسيا فى تكوين الشعب التتارى » (**) • هكذا تدعى الكاتبة أن شعوبا أخرى لعبت دورا كبيرا فى تكوين الشعب التتارى • وواضح أن الباحثة بكونها غير متخصصة فى دراسة أصول الشعوب الناطقة بالتركية ، قد اعتمدت على القراءات الأدبية ، مما جعلها تنحرف فى تيار النظريات غير الصحيحة عن أصول الشعب التتارى • ومما يثير الدهشة حقا هو اصرار الباحثة على ما تدعيه ، وعدم رغبتها فى أن تأخذ فى الحسبان تلك الأبحاث الجديدة التى نشرت فى الانثربولوجيا والآثار واللغة للشعب التتارى الحديث • ونستطيع القول ان كل ما تدعيه الباحثة لايستند الى حقائق علمية ولا أساس له من الصحة على الاطلاق •

(*) Tokarev A. S. : Etnografiya narodov S.S.S.R. M. 1958. s 171-172.

(**) Kozlova. K.T. : Ethografiya narodov Povoliya. M. 1964. s 20-21.

. ومن ناحية أخرى نجد « نيكونوف » وهو عالم بارز في أحد فروع العلوم الحديثة ـ الاثنونيميا (١٠) ، بكونه دارسا لجذور أسماء الشعوب وتاريخها يشير الى أن « الشعب الحديث الذى سميت جمهورية تتارستان باسمه ، يعود بجذوره القديمة الى مرحلة ما قبل البولجار ، وأن تاريخ اسم التتار يختلف اختلافا تاما عن تاريخ الشعب نفسه » • ويتناول الباحث في كتابه استشهادات بعض المؤلفين لاسم التتار الذى يعود الى الغزاة المغول في القرن الثالث عشر ، كما يتناول الجدل المستمر بين العلماء الذين انقسموا في استخدامهم لهذا الاسم الى فريقين ، كل منهما لايستطيع أن يفهم الآخر • ومن هنا يشير الباحث الى أن « هذا الجدل الذى يؤدى الى تعقيد الأمور ، سيستمر بلا نهاية اذا لم نتعلم كيف نفرق بدقة بين تاريخ اسم الشعب وتاريخ الشعب نفسه » (*) • واذا كان كثير من العلماء والمؤرخين لايستطيعون حتى الآن التمييز بين تاريخ اسم الشعب وتاريخ الشعب نفسه فماذا ننتظر من القراء العاديين ؟! ويعبر نيكونوف عن أسفه الشديد تجاه بعض المؤرخين الذين يستخدمون هذا الاسم بحرية وبلا تكلف ، مما أدى الى تضليل العلماء والباحثين والجماهير العريضة من القراء تجاه أصل التتار وتاريخهم الحقيقى •

(*) Nikonov, V. A. Ethonimiya. — Sbornik Etnonimii M. 1970. s 11.

اسم التتار بجذوره ومن سمى بهـذا الاسم

ان اسم التتار بجذوره اللغوية قد استرعى انتباه الكثير من العلماء ٠ ونجد تفسيرات مختلفة لهذا الاسم ، فهناك من يرى أنه مشتق من (تات) بمعنى الجبل و (آر) بمعنى الساكن ، أى ساكن الجبال (*) ٠ والمعروف أن اللاحقة (آر) تستخدم في أسماء كثير من الشعوب مثـــل : بلغار ومديار (١١) وآوار (١٢) وخازار (١٣) وميشار (١٤) وسوفار (١٥) ، حيث كلمة (آر) فارسية الأصل بمعنى الانسان ، لكن كلمة (اير) التركية بمعنى الانسان تنسب كالمعتاد الى آر ، ومن هنا يبدو أن اســم التتار يعود بجذوره الى اللغة التركية ٠

ونجد « بيلوزورسكايا » (**) تربط جذور اســم التتار بالكلمة الفارسية (دفتر) وبمعنى الاستعمارى ٠ لكن اسم (تبتر) ظهر فى وقت متأخـر ، حين بدأ يطلق على بولجار نهـر الفولجا وامارة قازان الذين هاجروا الى جبال الأورال وباشكيريا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، اذن لايوجد أى صلة بين كلمة (تتار) و (دفتر) ٠ وهنـاك محاولات أخرى لتفسير الجذور اللغوية لاسم التتار من الكلمة الطونغوسية (تاتا) بمعنى الرامى من القوس وبمعنى أن يجر ، لكن هذا التفســير أيضا لا أساس له من الصحة ٠

ويربط عالم التركيات المشهور « يريمييف » جذور اسم التتار بكلمة فارسية وبشعب فارسى قديم ويقول : « اننـــا نستطيع من المقطع الأول لاسم التتار (تات) عقد المقارنة بينه وبين اسم سكان ايران القدامى ، ويشير محمود القشغاوى الى أن الأتراك أطلقوا اسم التات على هؤلاء الذين يتحدثون الفارسية أو اللهجات الايرانية بصـفة عامة ٠ وكان الأتـراك يطلقون اسم التات أيضـا على جيرانهم الآخرين كالصينيين والأيغور ٠ ويبدو من ذلك أن المعنى الأصلى لاسم التات كان « الايرانى » أو « الناطق

(*) Suharev. A. A. : Kazanskiye tatari. SUb, 1904, s. 22.

(**) Belozerskaya, O. : "Znaniye sila." 1970. 7.

باللغة الايرانية » ، ثم بدأ يطلق هذا الاسم على كل غريب وأجنبى » (*) .

ونجد كلمة (ترتر) فى الأساطير الاغريقية تعنى عالم الغيب أو الجحيم . وقد عرفت شعوب أوربا اسم التتار بمعنى ترتر . وكان الترتر فى مفهومهم قوما يجلب الأهوال والموت والعذاب ويأتى بنهاية العالم ، لذلك نجد فى دائرة المعارف الانجليزية كلمة « ترتار » تذكر بمعنى اسم الشعب ، وفى الوقت نفسه نجد لهذه الكلمة تفسيرا آخر أى بمعنى شخص متسلط ، مشاكس ، عصبى الطباع .

ويرى الكثيرون أن اسم التتار مشتق من اللغة الصينية ، اذ كانت هناك قبيلة مغولية يطلق عليها اسم « تاتا » أو « دادا » أو « تاتان » ، تسكن منطقة مانجوريا وشمال شرقى منغوليا فى القرن الخامس الميلادى . وكانت بعض اللهجات الصينية التى يتوفر فيها صوت يشبه صوت (ر) ، تطلق عليها « ترتار » أو « تتار » . وقد تميزت تلك القبيلة بروح قتالية عالية ، مما جعلها تهدد القبائل المغولية المجاورة أو القريبة منها ، وتزعج الصينيين أنفسهم . وكانت غارات قبائل تاتا تجلب للصينيين الأقوياء كثيرا من التعب والعناء ، لذلك كان الصينيون يقصدون تصويرهم بالبرابرة الهمجيين . وقد أطلق مؤرخو الصين هذا الاسم فيما بعد على الشعوب الشمالية المجاورة لها ، أو على الشعوب المعادية لها بصفة عامة ، وكان منها قبائل غير مغولية الأصل من منطقة آسيا . وبفضل خفة يد الصينيين انتقل اسم التتار كمرادف للبرابرة المتوحشين الى المصادر العربية والفارسية ثم الأوربية (**) .

وقد أعلن القائد المغولى جنكيز خان عن شدة غضبه على قبائل تاتا بقوله : « كان التتار يقتلون آباءنا وأجدادنا من قديم الزمان ، فسوف نأخذ بثأر هؤلاء السلف » (***) وجمع جنكيز خان كل جيوشه وقضى بالفعل على تلك القبائل . ويقول كيتشانوف المؤرخ السوفيتى لتاريخ المغول : « هكذا تم القضاء على قبيلة تتار قبل ظهور المغول على مسرح التاريخ ، تلك القبيلة التى تركت مجرد اسمها يطلق على جميع القبائل المغولية . وعقب مرور ما يقرب من ثلاثين عاما ارتفع صياح (التتار !) أثناء مجازر المغول فى مدن وقرى الغرب النائية ، مع أن التتار لم يبق منهم فى جيوش الغزاة الجارفة الا القليل ، ولم يبق منهم الا الاسم الذى

(*) Yeremeev. D. E. : K semantike turezkoy etnonimii. V sb. Etnonimi. M. 1970. s. 134.

(**) Brokgauz. 7fron : Ensiklopediche kiy slovar. T. 67. 1902. s. 347.

(***) Dzan. L. : Altan tobchi. M. 1973. s. 62.

كان يثير الرعب بين الشعوب المختلفة ، بينما هم أنفسهم كانوا مدفونين منذ زمن بعيد فى تراب أوطانهم » (*) ٠

لقد أصدر جنكيز خان أمرا بمنع استخدام اسم التتار الذى كرهه من أعماق قلبه ٠وحينما قام الرحالة الأوروبى روبروك (Rubruk) (١٦) بزيارة جيوش المغول فى عام ١٢٥٤ حذروه بشدة من ذكر اسم التتار أمام المغول ، لكن هذا الاسم كان قد انتشر فى ذلك الوقت انتشـــارا واسعا شمل مناطق آسيا وأوربا بكافة بلادها حتى المحيط الاطلنطى ، ولم تستطع مثل هذه الاجراءات الادارية أن تمحو هذا الاسم من ذاكرة الشعوب ٠

وغداة الغزو المغولى انتقل اسم التتار الى أوروبا عن طريق التجار والرحالة عقب عودتهم الى ديارهم من بلاد الشرق ، وبعد أن بلغت جيوش المغول قلب أوروبا عم سكانها الشعور بالفزع والقلق ، واتجه ملك فرنسا لودفيك التاسع الى مخاطبة المسيحيين ، يحثهم على لعنة التتار القادمين من الآخرة ، ويدعوهم الى الصلاة والصيام الجماعى ليستجيب لهم الرب الأعلى ، وينقذهم من « نهاية العالم » ٠ وكان الملك أثناء خطبته هذه يشبه المغول بأهل ترتر ، ويفسر ظهورهم باقتراب يوم القيامة وفتح باب جهنم للبشرية برمتها ٠ وأخذ الناس منذ ذلك الحين يؤمون الكنائس للصلوات كى يحميهم الرب من هؤلاء الترتر ، فكانوا يرددون بثقة وحماس اللعنات المنصبة على التتار ، اذ أنهم لم يروا طريقا آخر للانقاذ ٠

ولم يتجه المغول صوب المحيط الأطلنطى ، لكنهم قصـــدوا البحر الادرياتيكى ، وحين بلغ جيوش المغول خبر وفاة الخان (١٧) العظيـــم عادوا فجأة الى ديارهم ٠ وقد ترك سلوكهم هذا فى أذهان شعوب أوربا أن الرب قد استجاب لصلواتهم ودعواتهم ، وأنقذ البشرية من اقتراب نهاية العالم ٠ ومنذ ذلك الوقت اكتسب الملك لودفيك التاسع لقب لودفيك المقدس ، وأصبح التتار « موسومين بوصمة تاريخية كشعب همجى عند رجال الكنيسة والمؤرخين القدامى ، أما المؤرخون الجدد فأضحى اســـم التتار فى كتاباتهم تسمية جماعية تشبه اسم الأسقوثيين عند الاغريق والكفار عند المسلمين » (**) ٠

والمعروف أن امبراطورية المغول قد تفككت فى القرن الخامس عشر الميلادى،ورغم ذلك استمر المؤرخون الغربيون والمستشرقون فى اطلاق اسم

(★) Kichanov. Y. I. : Jizn Timuchina dumayushego pokorit mir. M 1973 s. 62.

(★★) Ritter. K. : Zemlevladeniye Azii. SPb. 1856 s. 667.

« الترتار » على كافة شعوب الشرق حتى القرن الثامن عشر الميلادى ٠ وكانت أوربا القرون الوسطى تقدم « الترتار » لتخويف الجماهير فى صورة أناس مقوسة سيقانهم لهم قرون وعيون ضيقة مرتفعة لحاظها ، ومن آكلة لحوم البشر ، وبهذا « تسببت فى تضليل كل الشعوب الأوربية التى أتت فى الزمن اللاحق ، فأصبح استخدام اسم « الترتار » ظاهرة عامة لدى كافة الشعوب المسيحية » (*) ٠ ونجد العالم « ريتتر » يشـــير فى كتابه الى أن « الالتباس الأكبر نجم فى التاريخ بعد أن أطلقت الشعوب الأوربية على الشعوب الناطقة بالتركية اسم « الترتار » ، وبعد أن ضمت اللغة التركية الى اللغة التتارية التى لايعرفها أحد ، لكنها فى رأيهـــم لا تختلف عن اللغة المغولية » ٠ ويشير المؤلف فى نفس المكان الى أن المغول لم يبقوا فى روسيا على الاطلاق ، و « بعد أن ضـــم الروس الى بلادهم امارة قازان وامارتى استرخان والقرم بقى اسم التتار يطلق على سكانها رغم أنهم كانوا من الشعوب الناطقة بالتركية ، فأصبحت لغتهم منذ ذلك الحين تسمى تتارية وليست تركية » (**) ٠

ولم يقف الأمر عند ذلك فحسب ، بل بدأ الأدب الأوربى فى القرون الوسطى ينسب الروس أنفسهم الى التتار ، وأخذ الأوربيون يطلقون على امارة موسكو اسم ترتاريا ، لأن الروس أسوة بالبولجار كانوا من أتباع الامبراطورية الذهبية ٠ وكانت أوربا فى القرون الوسطى مثلما كان الصينيون من قبل ، ترى نفسها مركزا للأرض والحضـــارة ، فاعتبر الأوربيون الغربيون وعلى رأسهم رجال الكنيسة أو مؤيدو سلطة الكنيسة أن شعوبا أخرى هم همج وترتار ٠ وهكذا التقت كلمة « تاتا » الوافدة من الصين مع « ترتار » فى أوربا بمعنى واحد أى الهمجى ، مما أدى الى تثبيتها فى وعى الجماهير بهذا المعنى ، كما ساهم التشابه الصوتى بين تاتا وترتار بدوره فى هذا الصدد ٠

وفى مثل هذا المناخ « الملائم » كان من السهل على رجـــال الدين والمؤرخين والأيديولوجيين الرسميين أن يقدموا التتار فى صورة البرابرة الهمجيين من سلالة المغول الغزاة ، مما أدى الى خلط شعوب مختلفة فى اسم واحد ، كما أدى ذلك قبل كل شىء الى تشويه أصول الشعب التتارى الذى نراه اليوم ٠ وفى نهاية الأمر كل ما قيل وقال انتهى الى تزييف التاريخ لكثير من الشعوب الناطقة بالتركية ، وفى مقدمتهم الشعب التتارى الحديث ٠ ونجد « ريتتر » وهو من أشهر علماء الروس فى الجغرافيـــا

(*) Ibid., s. 677.

(**) Ibid., s. 678.

والتاريخ الذى تتلمذ عليه « رادولف » العالم الأكاديمى فى علم التركيات يقول : « رغم سوء استخدام اسم التتار فى الجغرافيا والاتنوغرافيا الذى أطلق أسوة على الأتراك الغربيين وعلى القبائل المغوليـــة فى مانجوريا الشرقية ، قد أصبح هذا الاسم تسمية مستحدثة تعنى كتلة مختلطة من شعوب آسيا الوسطى ، لذلك نجد دراسة كل ما كتب حول هذا الجزء من العالم أمرا صعبا للغاية » (*) ٠

وقد أدرك بعض العلماء الروس منذ منتصف القرن التاســـع عشر ضرورة تمييز اسم المغول والتتار عن أسماء الشعوب الناطقة بالتركية ، كما رأوا أن استخدام هذا الاسم بلا ضابط أو رابط يؤدى الى تشـــويه تاريخ بعض الشعوب وماضيها ، ويعوق الأبحاث العلمية الجادة تجـــاه حضارة الشعوب ولغاتها واصولها ٠

ان قضية التحديد الاصطلاحى من أهم القضـــايا فى المجال العلمى بكافة فروعه ، لذلك نجد العلماء يشيرون فى كتاباتهم الى أنه اذا أمكن القضاء على الفهم المختلف والتفسيرات المختلفة لبعض المصطلحات لاستطاع العلم أن يتخلص من أعباء كثيرة وتناقضات فى الأسماء، ولأصبح يواكب تطوره قدما بخطى أسرع ٠ وتبدو هذه الظاهرة بوضوح فى التفسيرات المختلفة لاسم التتار التى أدت الى الخلط وظهـــور الخرافات بمختلف أنواعها ، والى تشويه تاريخ جذور الشعب بأكمله ٠

(*) Ibid., S. 667.

من هم أسلاف الشعب التتارى الحديث ؟

ان الشعب المعروف باسم التتار اليوم أو تتار قازان هم سلالة مباشرة لبولجار نهر الفولجا ، لكن من هم البولجار أنفسهم ؟ نجد المؤرخين يقدمون تفسيرات مختلفة لأصول البولجار ، فهناك من العلماء مثل جيلفيردنك (A. Gilferding) وايريتشاك (K. Irechek) ودرينوف (M. Drinov) وزولوتنيتسكى (N. Zolotnitskiy) وروستلر (R. Rostler) يرون أن أصولهم تنحدر من الأورالتشودية (١٨) ، أما العلماء مثل ميكلوشى (F. Mikloshi) وفامبيرى (A. Vamberi) وتوماشك (V. Tomashek) وكون (G. Kunn) ورادلوف (V. V. Radlov) وميكولا (I. Mikola) فيرون أن أصولهم تركية ، ويرى زولوتارسكى (V. N. Zolotarskiy) وماركفارت (F. Markvart) أن أصولهم هونية أى تنحدر من قبائل الهون (١٩) (وهذا يعنى أن أصولهم تركية أيضا) . وهناك من يرى أن البولجار يستمدون أصولهم من السلاف ، وهناك من يرى أن أصولهم فراكية . ويشير المؤرخ السوفيتى « سيروتينكو » الى أن بعض الكتاب يتخذون من المخطوط « أيام ميلاد حكام البولجار » دليلا لادعاءاتهم، حيث فسر كل منهم الأسماء البولجارية طبقا لوجهة نظره الخاصة، فوصلوا فى النهاية الى استنتاجات متضاربة(*) . ويرى العالم سميرنوف (A. P. Smirnov) أن البولجار هم أهل البلاد الأصليون الذين يستمدون أصولهم من قبائل صرمات (٢٠) وآلان (٢١) ، والذين تعرضوا للتأثير التركى فى بداية الألف الأول الميلادى . وهذا الرأى قريب من رأى العالم سيروتينكو الذى يرى أن البولجار القدامى هم قبائل تفرعت من قبائل صرمات وآلان ، وكانت تسكن شمال القوقاز ومنطقة تمتد بين نهرى الفولجا والدون قبل الزحف الهونى . وقد تعرض البولجار فى رأيه للتتريك عقب هجرة القبائل التركية الى تلك المناطق منذ القرن الثانى الميلادى . ويرى مربيرت (N. Y. Merpert) أن البولجار القدامى ليسوا

(*) Sirotenko. V.T. : Osnovniye teorii proishojdeniya drevnih bulgar i pismenniye istochniki 4-7 v.v. Uchenniye zapiski Permskogo gos. universiteta, t. 20 vip. 4, 1961, s. 6.

من السكان المحليين ، لكنهم من القبائل التركية التى زحفت قبل الهون من آسيا الى شواطىء بحر آزوف ونهر الدون والى سهوب القوقاز فى القرن الأول الميلادى حيث اختلطت بقبائل صبير وآلان • ونجد مايير (M. Mayer) ينسب البولجار القدامى الى القبائل الأغوزية (٢٢) الذين شكلوا أساس الكثافة السكانية لمملكة البولجار على ضفاف نهرى الفولجا والدون ، وهناك آراء أخرى حول جذور البولجار القدامى ، وهى قريبة الى حد ما من الآراء التى سبق ذكرها •

ورغم هذا الاختلاف فى الرأى اتفق كل المؤرخين واللغويين على شىء واحد : هو أن البولجار فى القرن الخامس الميلادى كانوا من القبائل الناطقة بالتركية (*) • ونجد المؤرخ السوفيتى « يريمييف » يسلم بأن بعض القبائل التركية كانت تسكن آسيا الصغرى قبل أن يتم تشكيل الشعب التركى ، ويشير فى كتابه الى أن « قضية أصالة الشعب التركى بجذوره المحلية فى آسيا الصغرى يوجد فيها بعض الحقيقة ، فالأتراك على وجه التقريب سلالة مباشرة لسكان آسيا الصغرى (**) • ويقول المؤرخ نفسه فى موضع آخر : « ليس هناك شك فى أن القبائل التركية بأعدادهم الضخمة كانت تمثل الجيرة الدائمة لشعوب آسيا الصغرى والقوقاز والبلقان منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، وكانت أعدادهم تتزايد فى هذه المناطق بصفة مستمرة » (***) •

وهناك اشارات هيرودوت (القرن الرابع قبل الميلاد) والمؤرخين الأرمن القدامى الى وجود الأتراك فى المناطق المذكورة ، مما يدعو الى الاعتقاد بأن القبائل التركية كانت تسكن جنوب شرق أوربا فى بداية العهد الميلادى • ثم ان توافد أقربائها الجدد الى هذه المناطق لم يحدث تغييرا جذريا فى حياة ولغة تلك القبائل ، ولم يؤد الاختلاط بينها الى ظهور شعب جديد •

ومما يلفت النظر فى هذا الصدد ملاحظات العالم الألمانى « هومل » حول الألفاظ التركية فى لغة شومر (٢٢) القديمة (****) ، مما يؤكد فكرة وجود الأتراك فى آسيا الصغرى منذ قديم الزمان ، وقبل العهد الميلادى بزمن بعيد • وقد تعرضت ملاحظات هومل فى وقتها لهجوم عنيف من

(*) Seyidov. M. A. : Zametki o gunskoy miffologii. — Sovetskaya turkologiya, 1970 — 2. s. 106.

(**) Yeremeev. D. Y. Etnogez turok. M., 1971, s. 21-22.

(***) Ibid., s. 53

(****) Hommel. F. : Zweihundert sumero-turkische wortgleichungen Munchen, 1915.

قبل علماء اللغات الهندية ــ الأوربية ، ولم يعتد بها لفترة طويلة عنــد دراسة تاريخ شعوب هذه المنطقة · ونجد في بحث سليمانوف (*) حقائق علمية جديدة تؤكد ملاحظات هومل ، ومن ثم فاننا لانستطيع تفســير وجود مئات الألفاظ التركية في لغة شومر بمجرد أوجه التشابه ، ومن الصعب أن نعارض استنتاجات سليمانوف التي تؤكد أن أسلاف الأتراك كانوا يسكنون بلاد شومر ، وقد دخلت الألفاظ التركية لغة شومر عقب الاختلاط بينهم ·

لقد عاش الشعب الشومري في الألف الثالث قبل الميلاد ، وتم ضم بلادهم الى الدولة الأكادية في عام ٢٤ قبل الميلاد · وفي ضوء ذلك كله لا بأس من الاشارة الى لغة شعوب دولة مينوى وحضارتهم أي حضــارة شعوب جزيرة كريت وجزر اليونان وبحر ايجة في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد ، حيث نجد أن الآثار المكتوبة التي وصلت الينا من حضارة مينوى كانت تشد انتباه العلماء منذ زمن بعيد · وقد تم حل رموز كتابة (ب)الخطية لهذه الحضارة · ونجد كتابة (أ) الخطية لنفس الحضارة مكتوبة برموز كتابة (ب) (٢٤) ، ولكن ليس بالمستطاع قراءتها حتى الآن، لأن المؤرخين واللغويين لايعرفون اللغة التي كتبت بها هذه الآثار · وقد اتفق العلماء على أن لغة الكتابة (أ) ليست يونانية وليست هنــدية ــ أوربية · وتشير تحليلات لغة الكتابة (أ) الى أنها تشبه لغة شــعوب بولينيزيا (٢٥) (Polynesiya) وتذكرنا بعناصر اللغة اليابانيــة · وقد تم التوصل الى هذا التشابه على أساس التشابه البنائي أو التركيبي لهذه اللغة مع اللغات المشار اليها · ويقول العالم « ريزانوف » في كتابه : « لنأخذ مصدرا آخر يتمثل في صور سكان كريت على الجدران والأواني والتماثيل ، وخاصة الأقنعة الذهبية من المقابر ، فسنجد عليها تركيبة الوجه الأسيوى الذي يتميز بعظــم وجنتيه العريض والأنف الفاطس · وكيف نتجاهل في هذا الصدد المصادر المصرية التي تشير الى أن سكان كريت كانت بشرتهم خمرية اللون ؟ ومن ثم فقد تكون قرابة اليابانيين مع أهل كريت ليست أمرا مستحيلا ؟ وتشير الآثار اليونانية الى أن لغة سكان كريت كانت متعددة · وهناك أدلة قوية أخرى تدعو الى الاعتقاد بأن بعض الشعوب وفدت الى جزيرة كريت من آسيا » (**) ، لأن منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط كانت منطقــة تشابكت فيهــا مجموعات لغوية مختلفة

(*) Suleymenov, O. : Az i ya. Alma-Ata. 1975.

(**) Bezanov. I. A. : Atlantida : fantaziya ili realnost ? M., 1975 s. 100-101.

ومنها اللغة الالتائية (٢٦) التى تنتسب اليها اللغة التركية وفق رأى العلمـاء ٠

وتتطلب هذه الحقائق والآراء اعادة النظر فيها اذا أردنا تحديد وقت ظهور القبائل التركية في آسيا الصغرى ومناطق البلقان والقوقاز وما بين نهرى الدون والفولجا ، وتحديد وقت ظهور البلغار فى أوربا الذين كانت لغتهم فيما يبدو فى ذلك الوقت تركية ٠

ونجد تاريخ هجرة الشعوب من آسيا الى أوربا (وربما من افريقيا الى آسيا ثم الى أوربا) لا يكتب عنها فى الأدب على وجـه التقـريب ٠ ولا شك أن مثل هذه الهجرات للتكتلات البشرية كانت تحدث منذ أزمنة ضاربة فى أعماق التاريخ ٠ ويعزو المؤرخون ظهور الشعوب الفينية ــ الأوغورية (٢٧) فى مناطق أوربا الشمالية والشمالية الغربية الى الألف الثالث قبل الميـــلاد (*) ، وتلك الفترة قريبة من فترة ازدهار الحضارة الشـومارية ودولة مينوى ٠ ونجـد معظم الشعوب الفينية ــ الأغورية قد وفدت مثل الشعوب التركية من آسيا وبقى فى لغتهم كثير من عناصر اللغة التركية وحتى من قواعد النحو التركى ، ومن هنا يعزو عدد كبير من العلماء اللغة التركية ولغات الفينية ــ الأوغورية الى مجمـوعة لغوية واحدة هى المجموعة الالتائية القديمة ٠ لذلك فان ظهور الشعوب الناطقة بالتركية فى جنوب شرق اوربا وآسيا الصغرى والبلقان واستقرارها هناك منذ فترة امتدت قرونا طويلة قبل الميلاد لم تعد مجرد نظرية تقال ٠ ونجد المؤرخين القدامى مثل هيرودوت (Herodot) وميلا (٢٨) (Mela) وبلينى (٢٩) (Pliniy) يشـيرون فى كتاباتهم الى شعب « توركى » يسكن مناطق ما وراء نهر الدون (تنايس) ، وقد ترجم هذا الاسم فى الكتب الروسـية الى « ييركى » أو « يوركى » وفسره المؤرخـون بمعنى تركى (**) ٠ وكان البلغار وفق معلومات المؤرخين الأرمن معروفين فى بلاد نهر الفولجا منذ القرن الثانى قبل الميلاد (***) ٠

ونحن نعلم جيدا هجـرة قبائل تركية أخرى فى بداية العهـد الميلادى ٠ وقد ظهرت على مسرح التاريخ قبائل الهون الناطقة بالتركية التى عبرت نهر الدون فى عـام ٣٧٠ م ٠ وانتصرت على شعوب شمال

(★) Etnogez finno-ugorskih narodov po dannim antropologii. M., 1975s. 16.

(★★) Yampolskiy. Z. : O turkah 5 veka do nashey eri. — Uchenniye zapiski Azerb. gos. un-ta, seriya yazik i literatura, 1970, vip. 5-6, s. 10-12.

(★★★) Lihachev. A.F. : Skifskiye elementi v chudskih drevnostyah Kazanskoy gubernii. Odessa, 1866, s. 15.

القوقاز ، ثم اتجهت وجهة الغرب حتى بلغت حدود امبراطورية روما فى عـام ٣٧٧ م ونزلت « بانونيـا » (Panonia) (٣٠) وتفكك اتحاد تلك القبائل عقب وفاة قائدها « اتيللا » ، فعادت الى ديارها فى البحر الأسود · وقد باءت محاولات قبائل الهون الجديدة للاستيلاء على بيزنطة بالفشل « وساهمت بقايا الهون بعد هزيمتهم لبولجار الفولجا فى تكوين الشعب التشوفاشى الحديث » (*) · لكن من حقنـا أن نتساءل هنا : أين ذهبت التكتلات البشرية الضخمة لقبائل الهون ؟ وسنحاول أن نجد الاجابة على هذا السؤال فيما يلى ·

ففى الزمن اللاحق نرى على مسرح التـاريخ قوم خزار (Hazar) وهم أيضا من القبائل الناطقة بالتركية فى أوربا الشرقية التى كانت تسكن ضفاف نهر الفولجا وشمال القوقاز ، وهى نفس المناطق التى كان يسكنها الهون من قبل · وفى عام ٦٦٠ م تم ضـم بلاد الهون لدولة الأتراك العظمى ، لكن كيف تكونت هذه الدولة ومن مؤسسها ؟ لا نوجد اجابة على هذا السؤال · وعقب انهيار دولة الأتراك الغربية ظهرت مملكة خزار التى تفككت بدورها فى القرن العاشر (**) · ومن هنا يلح علينـا السؤال : كيف تكونت هذه المملكة ومن مؤسسها ؟ وأين ذهب سكان الاتحادات الدولية الضخمة السابقة ؟

وكانت كل قبائل هذه الاتحادات الضخمة تنطق باللغة التركية ، ومن ثم فليس هناك مجال للحديث عن اذابة الشعوب بلغاتها فى شعوب أخرى ، والأحرى بنا أن نتحدث هنا عن صراع القبائل من فصيلة لغوية واحدة ، لكنها تتميز بلهجاتها المحلية المختلفة · وهكذا تتضح الاجابة على السؤال الذى طرحناه من قبل وهو أين ذهبت شعوب تلك الاتحادات الدوليـــة ؟

وفى الفترة التى سبق ذكرها أى فى نهاية القرن السادس الميلادى ظهرت على مسرح التاريخ مملكة البلغار العظمى التى شملت مساحة شمال القوقاز ، ضفاف نهر الدون وبحيرة آزوف · وقد ازدهرت هذه المملكة فى فترة الحاكم « كوبرات » حين فرضت سيطرتها على تلك المناطق · ولم يمض وقت طـويل حتى انتصر الخزار على بلغـاريا العظمى ، وتفكك الاتحاد الدولى لكن شعبه لم ينقرض ، فذهب جزء منـه تحت قيـادة « اسباروح بن كوبرات » الى سهوب الدانوب ، وقد مهد لهم هذا الطريق أقرباؤهم الهون من قبل · وكما هو معروف فان هذا الجزء من البلغار

(*) Sovetskaya istoricheskaya ensiklopediya. t. 4, s. 890-891.

(**) Ibid. t. 15. s. 484-485.

قد ذاب فى الأغلبية السلافية ، وبقى اسمهم وأثرهم الواضح فى أنثربولوجيا بلغار نهر الدانوب الذين نراهم اليوم ، وفى لغتهم وتقاليدهم. لكن لماذا انتقل جزء من البلغار الى الدانوب بالذات ؟ ربما كانت قبائلهم تسكن تلك المناطق من قبل ! ويشير العالم جينينج الى « أن قبائل الهون كانت تسيطر على غرب البحر الأسود حتى عام ٤٦٨ - ٤٦٩ م . ولم يذكر بين قبائل الهون الشرقية أى قبيلة أخرى . اذن لم يبق امامنا سوى الاعتقاد بأن البلغار الذين اتحدوا مع بيزنطة فى معركة بلقان عام ٤٨٠ م ، كانوا يسكنون تلك المناطق ، وأطلق عليهم اسم الهون عقب الانضمام الى اتحادهم » (*) .

وفى القرن الثامن الميلادى اتجه البلغار متحدين مع قبائل يتحدثون نفس اللغة الى أواسط نهر الفولجا وكونوا هناك مملكة بولجار (**) . ونجد العلماء المؤرخين حين يتحدثون عن هجرة البلغار الى أواسط نهر الفولجا لا يجيبون على سؤال : هل بقى جزء من البلغار فى المناطق التى كانوا يسكنونها من قبل ، أى فى شمال القوقاز وشواطىء بحر آزوف ونهر الدون ؟ واذا كانت الاجابة : « نعم » فمن هم السلالة المباشرة لهم اليوم ؟ نحن نتابع الآن البلغار فى أواسط نهر الفولجا ثم نحاول أن نجيب على السؤال المطروح .

ويعتقد كثير من المؤرخين أن القبائل الفينية - الأوغورية كانت تسكن أواسط نهر الفولجا فى تلك الفترة وهم أسلاف لشعبى مارى (٣١) وأودمورت (٣٢) ، لكن لايوجد هناك أى أدلة تؤكد أن هذه المنطقة قد تم تعميرها واستصلاحها قبل مجىء البلغار . ويلاحظ ذلك أيضا عالم الآثار السوفيتى « جينينج » ، اذ يشير فى كتابه قائلا : « لم تتصل قبائل البلغار التى وفدت الى الأراضى الايمينكوفية (٣٣) بالسكان المحليين ، وقد يكون الايمينكوفيون قد تركوا هذه المنطقة قبل ظهور البلغار فى أواسط نهر الفولجا وذهبوا الى مكان آخر » (***) .

ونجد بعض المؤرخين يلاحظون تغلغل القبائل التركية الى أواسط نهر الفولجا قبل ظهور البلغار بزمن بعيد ، ربما بدأت هذه الحركة من ضفاف نهر الدون وشواطىء بحر آزوف وشمال القوقاز ، وقد تكون من آسيا أيضا . ومن هنا يمكن اعتبار الهجرة الجماعية للبلغار استمرارا

(*) Gening. V. F., Halikov. A. H. : Ranniye bolgari na Volge. M., 1964, s. 107.

(**) Halikov. A.H. : Tatar halkinin kilip chigishi. Kazan 1974, s 27-31.

(***) Gening. V. F., Halikov. A. H. : op. cit., s. 153.

لهجرة أجدادهم أو لهجرة قبائل تركيـة أخرى الى تلك المناطق قبـل القرن الثامن الميلادى . وكان على البلغار قبل اتخاذ قرار الهجرة الى ضفاف نهر قاما (٣٤) ، أن يعرفوا جيدا أن هناك أراضى خالية وغنيـة بالموارد الطبيعية ، وأن يفكروا فى امكانية توفير وسائل الرزق لأنفسهم ، وأخيرا كان عليهم تجميع معلومات كافية وصحيحة حول طبيعة المنطقة . ولم تمر هذه الهجرات بخط أفقى وانما بخط رأسى ، وهنـاك المناخ والظروف الطبيعية تختلف بشدة عن المناطق التى كانوا يسكنونها . واذا لم يكن البلغار قد أدركوا ذلك كله مسبقا فما كان من الداعى أن يتركوا مناطق تفوق بظروفها المناخية والجغرافية تلك المناطق التى اتجهوا اليها ، وكان من الممكن أن يسلكوا طريق « اسباروح » (٣٥) بخط أفقى الى الدانوب ، أو يتجهوا الى مناطق أقرب وألطف مناخا ، اذ كان المناخ فى ذلك الوقت يلعب دورا رئيسيا فى حركة الشعوب وهجراتها ، لأن الحياة كانت قائمة على التنقل والترحال ومرتبطة بتربية المواشى . لذلك فان لدينا أسبابا قوية للاعتقاد باستقرار بعض القبائل البلغارية أو التركية القريبة لها فى أواسط نهر الفولجا قبل هجرة البلغار الجماعية ، وبالتأكيد كانت لها صلة وثيقة بالبلغار قبل هجرتهم بفترة طويلة . وهنـاك بعض المؤرخين يسلمون بحقيقة استقرار البلغار واقامتهم حول مصب نهر قاما قبل هجرة البلغار الجماعية (*) . ويؤكد ذلك الرأى التأقلم السريع للبلغار عقب هجرتهم الى أواسط نهر الفولجا .

وقد تكون القبائل التى اشتركت فى تكوين دولة بلغاريا العظمى ، تميزت بأصولها ، « لكن ليس هناك أدنى شـك فى أن هذا الاتحاد تم بناؤه على القرابة بين لهجات للغة واحدة هى اللغة التركية القديمة » (**) . ومن الصعب أن نعارض رأى المؤرخين الذين يؤكدون الأصـول التركية للاتحادات القبلية والتكتلات البشرية فى المناطق التى كان يسكنها البلغار . وقد بدت وحدة اللغة أكثر قوة بلا شك فى فترة ظهور بلغاريا العظمى فى ظروف الاتحاد السياسى والترابط الاقتصادى ووحدة التنظيم العسكرى والاتصالات الوثيقة الأخرى القائمة على صلة الرحم . ونجد البلغار أثناء هجرتهم الى أواسط نهر الفولجا كانوا يشكلون كتلة متجانسة تتحدث لغة تركية مع بعض العناصر من التقاليد التى احتفظت بها .

(*) Aristov, N. A. : Zametki ob etnicheskom sostave turkshich plemyon i narodnostey i svedeniya o ih chislennosti. — Jivaya starina, 1896, vip. 3-4, s. 407.

(**) Gening, V. E., Halikov, A. H. : oj. cit., s. 130.

البولجار على ضفاف أواسط نهر الفولجا

هناك دراسات كثيرة حول تاريخ بولجار الفولجا ، فلا داع أن نشغل أنفسنا بعرض تاريخهم وتطوره • وقد اتفق جميع المؤرخين على أن استيطان البولجار لأراضي أواسط نهر الفولجا تم بطريقة سلمية بعيدا عن أي مناوشات حربية • وعلى أية حال فلا يوجد بين أيدينا أية أدلة أو وثيقة تثبت استيطان البولجار التعسفي للمنطقة • وقد أكد المؤرخون أن البولجار لم يشغلوا أنفسهم بالحروب العدوانية عقب استقرارهم في المنطقة ، بل كانوا يعيشون حياتهم السلمية ، يزرعون أنواعا مختلفة من الفواكه والخضار والحبوب ، ويشيدون المدن بها الخانات وأنابيب المياه ، ويصنعون المصوغات الرائعة ، ويقومون بسبك حديد الزهر أو تصنيع الفراء والجلود ، يبنون الجوامع والمدارس ، ويمارسون النشاط التجاري مع بلاد مختلفة سواء أكانت في الغرب أم الجنوب أم الشرق • ونجد الرحالة يشيرون الى أن البولجار كانوا يمتازون بالتسامح الديني ، ويعملون على تطوير ثقافتهم ويهتمون بالشعر ، ولديهم علماء ومؤرخون وحرفيون ومدارس ومكتبات وأبحاث في شتى الفروع العلمية • أما عاصمة مملكة « بولجار » فكانت مركزا للنشاط التجاري بين الشرق والغرب • والمعروف أن تحويل الدولة الى مركز تجاري بين مختلف الشعوب كان يحتاج الى التسامح الديني والتعايش السلمي ، مما أدى الى استقرار الدولة وازدهارها •

لقد منحت علاقات البولجار الوثيقة مع الشعوب المجاورة ابتداء من حدود الصين والهند حتى اسكنديناڤيا وأوربا الغربية فرصة استيعاب الانجازات الحضارية لكثير من الشعوب ، وخاصة الحضارة العربية التي كانت حينئذ في مقدمة الحضارات • ونجد أسلوب التطور السلمي وتجنب الحروب العدوانية وانشاء المدارس والاعتناق الرسمي للديانة الاسلامية قد أدى الى سرعة توحيد البولجار سواء أكان في اللغة والثقافة والاقتصاد أم في الطباع والعادات والتقاليد وأساليب الحياة ، أو بتعبير آخر أصبحت لهم الوحدة القومية أكثر قوة •

ولم يبق البولجار بعد وصولهم الى ضفاف نهر الفولجا في صورة أصلية دون تغيير ، فكانت عملية توحيد قبائل البولجار مستمرة • وربما

حدث هنـاك تقـارب وامتزاج بينهم وبين القبائل الفينية ـ الأوغورية المجاورة لهم وبنسبة ضئيلة بينهم وبين القبائل السلافية. لكننا لا نستطيع القول ان نطـاق هذا التأثير كان واسـعا ، اذ أن الوثائق فى علم الآثار تشـير الى عـدم حـدوث تغيرات ملحوظة فى تطور البولجار الحضارى . وتؤكد ذلك الوثائق الاثنوغرافية والمادة اللغوية والانثربولوجية ، ومن ثم فليس هناك ما يدعو الى الحديث عن التغيرات الناتجة عن هذا التأثير فى الشعب البولجارى أو عن ظهور شعب جديد .

ومن الصعب أن نجد فى التاريخ شعبا لم يتغير . « ومن المتفق عليه أن معظم الشعوب تكونت نتيجة الاختلاط بين مجموعات بشرية مختلفة سواء أكانت من سـكان محليين أم مجمـوعات وافدة » (*) وكان هذا الاختـلاط لدى بعض الشعوب قويا للغـاية ، مما أدى الى ظهور شعوب جديدة ، وكثيرا ما كان يتبع ذلك تغيير اسم الشعب . غير أن هذا الاختلاط حدث عند شعوب أخرى بطريقة تعسفية ومع ذلك لم يدخـل تغيرات ملحوظة فى كيانها .

ونجد الشعوب المقهورة عقب احتلال أراضيها والقضاء على استقلالها واضطهاد لغتها وعاداتها وتقاليدها وديانتها تستطيع أن تذوب فى الشعب الغالب . أما بالنسبة للبولجار فلم يكن هناك أساس يستدعى الحديث عن مثل هذه التغيرات ، ومن الصعب قبول ما يحلو لبعض المؤرخين الكلام عنه حول تغيير كيان الشعب البولجارى عقب التأثيرات الفينية ـ الأوغورية عليه ، لأن مستوى البولجار الحضارى كان عاليا ، اذ كانت لهم النظم السياسية والاجتماعية، وكانت لهم الكتابة والأدب والمدارس والأيديولوجية الرسمية أى الديانة والتقاليد التى ترسبت فى الاقتصاد والثقافة والحياة الاجتماعية ، ومن ثم فانهم لم يتعرضوا لتأثير جيرانهم الا بنسبة ضئيلة. ولا توجد لدينا أى أدلة تؤكد ذوبان القبائل الفينية ـ الأوغورية التعسفى فى الشعب البولجارى لكى تحدث التغيرات الانثربولوجية فى كيان الشعب البولجارى . ونحن بطبيعة الحال لا نستثنى بل نسلم بتأثير الشعوب المجاورة على البولجار ، لكن هذه التأثيرات كانت محلية ، ضئيلة الشأن وغير ملحوظة ، فلم تغير لغة البولجار وأسلوب حياتهم وحضارتهم وعاداتهم ومعتقداتهم ، أى لم تغير أنثربولوجيا البولجار . ويؤكد هذا أبحـاث المؤرخين وعلماء الآثار والاثنوغرافيا والانثربولوجيا الذين عاشوا قبل وبعد الثورة (٣٦) . ويبدو أن الشعوب الفينية ـ الأوغورية المجاورة قد تأثرت بالشعب البولجارى أكثر ، ويؤكد هذا لغتهم وحضارتهم ، لكن

(*) Bromley Y. V. : Etnos i etnografiya. M., 1973 s. 104.

رغم ذلك نجد المؤرخين يتركون هذا الجانب ولا يتحدثون عن ظهور شعوب جديدة كشعب « مارى » مثلا أو شعب « أودومورت » أو شعوب أخرى ·

ولم يستطع الغزو المغولى لأراضى البولجار والشعوب الفينية ــ الأوغورية أن يحدث تغييرا ملحوظا فى كيان الشعب البولجارى وفى كيان شعوب مارى وأودمورت وموردفا والروس ، لأن الغزاة لم يستقروا على أراضيها ، ولم يكونوا على اتصال دائم معها ، أضف الى ذلك شدة الاختلاف بين المغول والبولجار من حيث اللغة والعادات والحضارة والتنظيم الاجتماعى والتقاليد · وحين زحفت جحافل المغول عبر ايران والقوقاز الى أوربا الشرقية وألحقت الهزيمة بالجيوش الروسية ــ البولوفتسية(٣٧) على ضفاف نهر « قالقا » (٣٨) ، كان البولجار قد انتصروا على الكتائب المغولية التى أرسلت فى خريف عام ١٢٢٣ م الى أواسط نهر الفولجا ، وولى المغول هاربين من بلاد البولجار · وقد حاول المغول فيما بعد التغلغل الى مملكة « بولجار » عدة مرات ، لكنهم اضطروا الى الانسحاب عقب اصطدامهم بمقاومة البولجار المستميتة · ولم يستطع المغول أن يتغلبوا على بولجار الفولجا الا بعد مرور ثلاثة عشر عاما · « وقد تحققت هذه الحملة فى عام ١٢٣٦ م ، حيث اشترك فيها أمراء الأسرة الملكية (أسرة جنكيز خان) التى كانت فى ذلك الوقت تنقسم الى أربعة فروع » · ويقول جوفان (Juvein) فى كتابه : « كانت الأرض تئن من أعداد الجنود الضخمة التى تجمعت على الحدود الشرقية لأراضى البولجار ، وأصيبت الحيوانات المفترسة وطيور الليل بالجنون من تكتل الجيوش » (*) · ولم تكن القوى فى ذلك الوقت متساوية ، فتساقط البولجار فى المعارك الضارية ، وتعرضت المدن والقرى للنهب والتخريب ، وتكبد الشعب البولجارى خسائر لا حصر لها ، لكنه لم يستسلم للهزيمة · « وفيما بعد تم القضاء على استقلال آلان وقيبجاق وموردفا (٣٩) وبورتاس (٤٠) ، ثم أتى الدور على أراضى الروس التى تم الاستيلاء عليها فى عام ١٢٤٠ م » (**) ·

ولم يستسلم البولجار رغم سقوط مملكتهم ، ولم يتوقفوا عن الكفاح من أجل استقلالها ، لذلك كان المغول يشنون حملاتهم الدامية مرارا وتكرارا ، ينهبون بلادهم ويدمرونها · وفى نهاية الأمر انتصرت القوة ، فوقعت مملكة البولجار مثلما وقعت روسيا الموسكوفية فى تبعية اقطاعية للامبراطورية الذهبية ·

(*) Grumm-Grimaylo G. Y. : Zapadnaya Mongoliya i Uryanhayskiy kray. t. 2 L., 1926, s. 463.

(**) Ibid., s., 463.

ولم يستقر المغول فى مملكة « البولجار » على ضفاف نهر الفولجا ، اذا لم تأخذ فى الحسبان حملات كتائبهم التأديبية وحملات جباة الضرائب، ومن ثم فلا داع للحديث عن التأثير المغولى فى كيان الشعب البولجارى . وقد يكون هناك بعض التأثير الانثربولوجي مثلما تعرضت له شعوب أخرى فى الامبراطورية الذهبية ، لكن ذلك لم يؤد الى تغيير ملحوظ فى كيان الفرس والجورجيين والأرمن والأوسيتيين والروس والشعوب الفينية ـ الأغورية وغيرهم من الشعوب . ونستطيع أن نقول ذلك أيضا بالنسبة للبولجار .

ان غزو المغول لأراضى مملكة البولجار وحملاتهم المتتابعه عليها ، ثم حملات الصعاليك الروس الذين كانوا يسكنون ضفاف نهر الفولجا ، وحملات أمراء الروس قد أدت الى هجرة جزء من البولجار الى مناطق نهر قاما الشمالية والى نهر فياتكا (٤٠) وضفاف نهير قازانكا (٤٢) ، أى الى المناطق التى تقل فيها الكثافة السكانية ، والتى بدأ البولجار يتغلغلون اليها قبل الغزو المغولى بزمن بعيد . وفى عام ١٤٣١ م . لم يستطع البولجار أن يصمدوا أمام الحملة التى قام بها الروس تحت قيادة « فيودور بوستري » (Feodor Pestriy) ، وسقطت عاصمتهم « بولجار » ، ولم يعد لها الكيان منذ ذلك الوقت . ومن هنا ازدادت هجرة البولجار الى المناطق التى أشرنا اليها من قبل .

وقد اعتمد بعض المؤرخين على تلك الحقائق وحاولوا أن يضعوا نهاية لتاريخ البولجار منذ ظهور العاصمة الجديدة التى أطلق عليها « بولجار الجديدة » ، وهذا أول اسم لمدينة قازان . وأصبح البولجار منذ ذلك الحين يطلق عليهم اسم « التتار » . ويبدو هذا الاتجاه بوضوح شديد عند العالم « شبيلوفسكى » الذى يشير فى كتابه الى أنه بعد أن تم القضاء على عاصمة البولجار بجيوش « فيودور بوسترى » فى عام ١٤٣١ م « تكونت فى مكانها الامارة التتارية القوية الجديدة وهى امارة قازان . وقد ضمت مساحة تلك الامارة أراضى البولجار السابقة وأراضى المنطقة الشمالية والجنوبية والشرقية المعروفة الآن بباشكيريا ومحافظتى « فاتكا » و « بيرم » (*) . ونجد « شبيلوفسكى » يعارض بشدة العالم « تاتيشيف » (Tatishev) الذى استخدم اسم التتار فى أحداث عام ١٤٢٩ م . لأنه فى رأيه « لم تكن قازان فى ذلك الوقت مركزا لأراضى البولجار » ، و « أنه يجب أن يطلق على التتار اسم البولجار قبل ظهور

(★) Shpilevskiy S.M. : Drevneyshiye goroda i drugiye bulgaro-tatar kiye pametniki v Kazanskoy gubernii. Kazan, 1887, sfl 191.

امارة قازان التى أسسها ابن أولو ــ محمد » (٤٣) (*) وهكذا تحول البولجار بارادة بعض المؤرخين فى سهولة ويسر الى شعب جديد تماما ــ الى « التتـــار » .

لكن ماذا تغير بعد أن هاجر جزء من البولجار الى مناطق كان يسكنها البولجار أنفسهم ، وذلك بعد أن اضطروا الى نقل عاصمتهم الى « بولجار الجديدة » أو قازان التى بنوها على بعــد ١٠٠ كم شـــمالى العاصـــمة السابقة ؟ طبعا لم يتغير شيء على الاطلاق ! لقد بقى معظم الشعب البولجارى فى مكانه (**) . ولم يحدث أى تغيير فى لغة البولجار ، ولم تأت مكانها لغة جديدة أى اللغة التتارية ، لأن اللغة التتارية لم يكن لها وجود فى أواسط نهر الفولجا وما حولها ، ولم يحدث أى تغيير فى الكتابة والدين والعادات والتقاليد والمعتقدات وأساليب الحياة وشكل الملابس والمساكن وما يشبه ذلك . وعلى أية حال فلم يجد أحد من علماء الآثار والاثنوغرافيا وعلم اللغــة والانتربولوجيـــا والنقد الفنى أية تغييرات عند المقارنة بين حضارة مملكة البولجار وامارة قازان أى امارة التتار . ومنذ ظهور امارة قازان توثقت العرى بين البولجار وبين شعبى مارى وأودمورت ، لكن هناك حقائق وأدلة تؤكد أن تأثير البولجار على كلا الشعبين كان أقوى » . ونجد التوارث بين دولتى بولجار وقازان لم يتمثــل فى تطابق مساحة هاتين الدولتين اللتين كان يسكنهما البولجــار وأولئك الذين أطلق عليهم اسم التتار ، بل كان ذلك التوارث يتمثل أيضا بوضوح فى شـــتى فروع الاقتصاد والحضارة لشعبى البولجار وتتار قازان ، ومنها على ســـبيل المثال الفلاحة على المساحات الواسعة مع اســـتخدام نظــام التبوير ، أو العلاقات المتطورة مع شعوب مختلفة والعلاقات التجارية داخــل البلاد التى تمركزت فى حوض نهرى الفولجا وقاما ، ثم التشابه الشديد فى فن انشاء المدن وصــنع التماثيـــل وفى النقوش التى تميز بهـــا الشعب البولجارى وتتار قازان بين كافة شعوب المنطقــة ، وفى فن المصــوغات والزخرفة والسلاح والآلات ولوازم المعيشة الأخرى ، وأخــيرا التــوارث الحضارى (الكتابة والأدب والدين) ، ثم وعى الشعب التتارى بأصوله البولجارية ومحافظتهم على التراث الشعبى الذى يعود الى عهد البولجار ، وتقديسهم لكثير من المدن والقرى والمقــابر البولجارية (***) وتأخذ على سبيل المثال مدينة قازان نفسها التى شيدت وكانت عامرة بالناس قبل

(*) Ibid., s. 190

(**) Fahruddinov R. G. : Arheologichesgiye pametnigi Voljsko-Kamskoy Bulgari i yeyo teritoriya. Kazan, 1975, s. 86.

(***) Ibid., s. 84-85.

الغزو المغولى بمئات السنين • ويشير المؤرخ « ريتشكوف » منذ القرن الثامن عشر الميلادى الى أن انشاء مدينة قازان تم قبل وقوع البولجار تحت سيطرة المغول بمائة سنة (*) ونجد مؤرخين مثل « نالينين » (Kalinin) و « سميرنوف » (A. P. Smirnov) وآخرين بكونهم على صلة وثيقة بالآثار التاريخية للدولتى بولجار وقازان ، يعزون تأسيس المدينة الى القرن الثانى عشر الميلادى أي قبل ظهور المغول فى تلك المنطقة بما يناهز مائة عام •

لقد أكدت الأبحاث الجديدة هذا الرأى حيث نجد مؤرخين مثل « ايفانوف » و « ايونينكو » و « خاليكوف » عقب استنتاجهم لمواد علمية جديدة فى علم الآثار والباليوغرافيا (Paleography) (٤٤) قد توصلوا الى نتيجة واحدة : هى تأسيس مدينة قازان قبل الفترة المغولية (**) •

وهناك بعض المؤرخين يتخذون حادث اعتلاء أحد أمراء الامبراطورية الذهبية « أولو ــ محمد » عرش امارة قازان دليلا لتحويل البولجار الى التتار ، لكن اذا سلمنا بهذا المنطق لكان يجب علينا أن نطلق على كثير من شعوب آسيا الوسطى والهند اسم « التتار » ، لأن هذه البلاد كان يحكمها أيضا أمراء الامبراطورية الذهبية • ونجد هؤلاء المؤرخين يستدلون أيضا بأن « أولو ــ محمد » جاء الى بلاد البولجار مع ثلاثة آلاف جندى • لكننا نرد عليهم بأن قصة اعتلاء « أولو ــ محمد » عرش قازان ليس لها أى دليل يؤكد ذلك • وتشير المخطوطات الى أن حاكم قازان كان أحد أبنائه • أما بالنسبة الى الثلاثة آلاف جندى فخمسمائة منهم ذهبوا مع ابنى أولو ــ محمد وهما يعقوب وقاسم الى روسيا الموسكوفية ، ومنحت للأخير الامارة المعروفة فى التاريخ باسم الامارة القاسمية • وقد سقط من هؤلاء الثلاثة آلاف جندى ما لا يقل عن خمسمائة فى المعارك • وحتى اذا سلمنا برأى القائل باعتلاء « أولو ــ محمد » العرش ووجود الثلاثة آلاف جندى من سلالة التتار بجواره فهل يستطيع ذلك أن يغير كيان الشعب بأكمله ؟ بل اذا سلمنا بهذا الخبر المشكوك فى أمره لكان يجب علينا أن نطلق على روسيا الكييفية اسم الامارة الفارياجية ونطلق على سكانها اسم الفارياج (٤٥) والنورمانديين (٤٦) بعد أن جاء هناك الأمير « أوليج » مع عدد من الاسكاندينافيين الذى لا يقل عن العدد السابق ذكره ،

(*) Richkov P. : Opit Kazanshov istorii dervenyshih i rednich vremen. SPb, 1767, s. 70-71.

(**) Ivanov V. V., Ionenko I. M, Halikov A. H. : Kogda Voznikla Kazan. 1974, s. 84-90.

أو نطلق عليهم اسم الامارة البولوفتسية وعلى سكانها « البولوفتسى » بحجة أن روسيا الكييفية كان يسكنها أعداد ضخمة منهم ، وكثيرا ما كان يعتلى عرشها الأمراء القبجاق ، أضف الى ذلك العلاقات الوثيقة بين الروس والقبجاق التى انعكست فى أنثربولوجيا ولغة وعادات روسيا الكييفية ٠ وهنا نتساءل : هل كان كل فرد من الثلاثة آلاف جندى ينحدر من الأصل المغولى ؟ نحن نعلم جيدا أن الغالبية العظمى من سكان الامبراطورية الذهبية كان يشكلها القبجاق ، أى شعب قريب من البولجار فى اللغة ، ومن المعروف أيضا أن المغول كانوا يجندون فى جيوشهم عنوة شبانا من كل الشعوب المقهورة ومنها الروس والبولوفتسى وآخرون ٠

ومن هنا يتضح بطلان آراء هؤلاء المؤرخين حول تغيير كيان الشعب البولجارى حينما اعتمدوا على هذا الخبر المبالغ فيه ٠ ويشير العالم المتخصص فى تاريخ البولجار « سميرنوف » الى أنه من الخطأ ربط تاريخ قازان باسم أولو ــ محمد كما يفعل بعض المؤرخين ، لأن منازل البولجار بنيت على ضفاف نهير قازانكا منذ القرن الثانى عشر الميلادى»(*) ٠

وكان المغول على اتصال دائم ووثيق بشعوب أواسط آسيا والهند وبلاد الفرس ، وأقاموا فى هذه المناطق مئات السنين ٠ وكان اتصالهم بتلك الشعوب أقوى بكثير من اتصالهم بشعوب أواسط نهر الفولجا ، ومع ذلك لم تتحول تلك الشعوب الى التتار ، برغم وجود محاولات لتسميتهم بهذا الاسم ٠ وكثيرا ما كان يطلق عليها اسم التتار ورغم هذا بقيت تلك الشعوب تسمى الفرس والتادجيك (٤٧) والقرغيز (٤٨) والأوزبك (٤٩) والكازاخ (٥٠) الخ ٠٠ ونذكر هنا حقيقة أخرى : اننا نجد كثيرا من الشعوب داخل امبراطورية المغول كانت لها صلات لغوية وحضارية بهم ، ورغم ذلك كله لم تتحول تلك الشعوب الى التتار ولم تصبح مغولا ، بل ما زال يطلق عليها « طوفين » (tuvin) (٥١) و « شور » (shor) (٥٢) و « حاقاس » (٥٣) (hakas) و « آلتائيون » (٥٤) ٠ لقد كان التأثير المغولى لا بأس به على أنثربولوجيا تلك الشعوب ولغاتها وعاداتها ، لكن رغم ذلك نجد أن بعض المؤرخين لم يجعلوا هذا الاستثناء الغريب الا للشعب البولجارى وحده ٠

ان المتخصصين فى تاريخ روسيا فى القرون الوسطى يعلمون جيدا أن بعد استيلاء الروس على امارة قازان كانت الحوليات الروسية تذكر سكانها لفترة طويلة باسم البولجار أو أهل قازان ٠ وكان الأمراء الروس يضيفون الى ألقابهم لقب « حاكم البولجار » وليس « حاكم التتار » ، أى

(*) Smirnov A. P. : Voljskiya bulgari. M., 1961. s. 73.

أنهم لم يخلطوا بين البولجار والتتار • أما اسم التتار فقد كان الروس يطلقونه على المغول ، ثم ابتدع المدونون الرسميون للأحداث التاريخية مصطلح « المغول ـ التتار » الذى يشير الى جهلهم ، والذى ازدهر فى الاصطلاح التاريخى وما زال يستخدم حتى اليوم •

وفى فترة ظهور امارة قازان كانت علاقات البولجار تزداد نشاطا مع الشعوب الفينية ـ الأوغورية وكذلك مع روسيا الموسكوفية ، لكن هذه العلاقات لم تؤد الى تغيير اللغة والانثربولوجيا والعادات والتقاليد ، لأنها كانت تحمل فى طياتها صفات اقتصادية وعسكرية وتجارية ، وبقدر قليل ثقافية • وفى هذه الفترة ربما ذاب فى الشعب البولجارى جزء من شعبى المارى والأودمورت كان يسكن داخل حدود امارة قازان ، لكن لم يحدث ذلك تعسفيا ، بل كان طبيعيا وبنسب ضئيلة • واذا لم يكن الأمر كذلك فمن الصعب تفسير وجود كثير من القرى لشعبى المارى والأودمورت داخل أراضى التتار حتى يومنا هذا • ومازال أهالى تلك القرى يتحدثون بلغتهم القومية ، ويحتفظون بعاداتهم وطقوسهم وثقافتهم رغم اقامتهم بجوار البولجار عصورا طويلة •

وكما قلنا من قبل كان البلغار يسكنون شمال القوقاز وشواطىء بحر آزوف ونهر الدون ، وكانت لهم علاقات وثيقة مع القبجاق ، وهم من نفس المجموعة اللغوية ، ويبدو أن جزءا من أراضى القبجاق كان من ضمن مساحة دولة بلغاريا العظمى • ولم تنقطع الصلة بينهم بعد هجرة البلغار الى ضفاف نهر الفولجا ، لكن ليس هناك مجال للحديث عن تأثير القبجاق على البولجار ، لأنهما من نفس الفصيلة اللغوية ، هذا مثلما لايستطيع تأثير شعوب روسيا البيضاء وأوكرانيا وسلوفاكيا أن يؤدى الى تغيير ملحوظ فى كيان شعب قريب لها أى الشعب الروسى ، لأن هذه الشعوب أحفاد لشعب واحد ، كذلك الأمر بالنسبة للبولجار والقبجاق والقوميق (٥٥) والكازاخ والنوغاى (٥٦) والبلكار (٥٧) والقراتشاى(٥٨)، فهم أيضا أحفاد لشعب واحد • ولنأخذ تاريخ شعوب أخرى لنؤكد على عدم تغيير كيان البولجار فى فترتى مملكة بولجار وامارة قازان ، ولنمنع بذلك محاولات تحويلهم الى شعب جديد أى الى « التتار » •

ونأخذ على سبيل المثال تاريخ تكوين الشعب الروسى ، اذ كان تأثير البولوفتسيين قويا وملحوظا فى تكوين الشعب الروسى فى فترة روسيا الكييفية ، كما كان هناك تأثير ضئيل الشأن من قبل الاسكاندينافيين والاغريق والأرمن ، وهذه الشعوب تختلف عن الروس بشدة فى الأصول واللغة وأساليب الحياة • وحين بدأ الروس ينتشرون فى مناطق تسكنها القبائل الفينية ـ الأوغورية ، ذابت معظم تلك القبائل فى الشعب

الروسى ، أما القبائل الأخرى فقد هاجرت الى الشرق والشمال • وفى فترة روسيا الموسكوفية حدث امتزاج لأعداد هائلة من القبائل الفينية ـ الأوغورية مع الروس ، ومنذ ذلك الوقت أصبح كيان الشعب الروسى يتشـــكل من عنصرين : « العنصر الســـلافى والعنصر الفينى - الأوغورى » (*) •

ويشير العلماء الى أن الحقائق الأنثربولوجية والاثنوغرافية واللغوية تؤكد أن الشعب الروسى قد ورث من تلك القبائل الملامح الفزيولوجية وخاصة أساليب حياتهم وحضارتهم ، ثم تتضح آثار لغة السكان المحليين من تلك القبائل فى اللغة الروسية ، أى بعبارة أخرى قد أصيب الشعب الروسى بتغيرات مهمـة ، لكنها فى النهاية لم تؤثر فى تسمية الشعب • وقد اكتسب الروس فى تلك الفترة بين شعوب أوربا اسما جديدا هو « موسكال » أو « موسكوفيت » ، وبدأ يطلق فى البلاد الأوربية على روسيا اسم « موسكوفيا » ، لكن الشعب الروسى رفض تلك التسمية ، وأخذ كلمة « روس » أساســا لتسمية بـلاده بروسيا ، ولتسمية أنفسهم بالروس ، ذلك تأكيدا على أنهم ورثة حضارة روسيا الكييفية من حيث الأصول • ونفس الشىء نلاحظه عند البولجار ، فبعد أن انتقلت عاصمتهم الى مدينة قازان التى كان يسكنهـا البولجار أنفسهم بدأت الحوليـات الروســية تطلق عليهم اسم أهل قازان أى « القازانيون » • ولم يقبل البولجار مثل الروس تسمية جـديدة لهم ، واستمروا يسمون أنفسهم ببولجار • لكن بعد سقوط امارة قازان لم يستطع البولجار أن يعلنوا بالطرق الرسمية أنهم بولجار ، وأن يدافعوا عن اسمهم الحقيقى بعد أن بدأ الروس يقدمونهم أمام العالم باسم « التتار » •

وفى فترة ظهور مملكة بولجار هاجر بعض البولجار بموافقة روسيا الموسكوفية الى الأراضى الروسية • وكانوا فى خدمة حكومة موسكو ، فاعتنقوا الديانة المسيحية وذابوا فى الشعب الروسى • وقد لوحظ أيضا هجرة بعض البولجار الى الأراضى الروسية عقب استيلاء الروس على امارة قازان ، وذاب هؤلاء بدورهم فى الأغلبية الروسية • ومنذ ذلك الوقت بدأت الحملة الصليبية ضد « التتار » ، وأخذ الروس يفرضون عليهم الديانة المسيحية بقوة السلاح • واستمرت تلك الحملة حتى بداية القرن العشرين • وكانت نتيجة ذلك كله أن الجزء الكبير من البولجار الذين استسلموا لهذه الحملة واعتنقوا المسيحية ، قد ذاب فى الشعب الروسى •

ونجد ما يناهز الربع من أسر النبلاء الروس تعود شجرة نسبهم

(*) Helimskiy Y. : Detektivnaya lingvistika. Znaniye-sila, 1975-2, s. 2. Proishoideniye i etnicheskaya istoriya ruskogo naroda. Trudi instituta etnografii. A. N. SSSR, novaya seriya t. 83, 1965.

الى هؤلاء البولجار والشعوب الناطقة بالتركية التى تم تذويبها فى الشعب الروسى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر • ونستطيع أن نتأكد من ذلك فى سهولة ويسر بمجرد القاء نظرة سريعة على كتاب الأنساب لنبلاء الروس • واذا كان الكثير منهم لم يرغب فى الاعلان عن أصوله التركية ، وسموا أنفسهم بالأسماء الروسية ، فقد بقى رغم ذلك عدد لا بأس به من الأسماء التى تشير الى أصولهم التركية (*) •

ونجد فى الأبحاث التى نذكرها فى هامش هذه الصفحة من أسفل الكتاب ، وفى مذكرات الرجال البارزين للفترة السابقة ، وفى شجرة النسب لبعض العائلات ، أن عددا كبيرا من الكتاب والعلماء ورجال **السياسية فى روسيا يعود بأصولهم الى الأصول التاريخية مثل** « درجافين » (Derjavin) (٥٩) و « بليخانوف » (Plehanov) (٦٠) و « كانتيمير » (Kantemir) (٦١) و «تيميريازيف» (Timiryazev) (٦٢) و «رحمانينوف» (Rahmaninov) (٦٣) و « كارامزين » (Karamzin) (٦٤) و « جريبويدوف » (Griboedov) (٦٥) و « سالطيقوف ـ شيدرين » (Saltikov-Shedrin) (٦٦) و «بونين» (Bunin) (٦٧) و «كوبرين» (Kuprin) (٦٨) و «تشادايف» (Chadayev) (٦٩) و «دوستويفسكي» (Dostoyevskiy) (٧٠) و « سيولكوفسكي » (Tsiolkovskiy) (٧١) و « راديشيف » (Radishev) (٧٢) و « داشكوفا » (Dashkova) (٧٣) و « ميلوكوف » Milukov) (٧٤) و « بنايف » (Panayev) (٧٥) و « كوجوشيف » (Kugushev) (٧٦) و « ينيكييف » (Yenikeev) (٧٧) و « أوتيشيف » (Uteshev) و « تنيشيف » (Tenishev) (٧٨) و « ينجاليتشيف » (Yengalichev) (٧٩) و « شيشكوف » (Shishkov) (٨٠) و « شاخوفسكى » (Shahovskiy) (٨١) و « ميشيرينوف » (Mesherinov) (٨٢) و « أوروسوف » (Urusov) (٨٣) و « شيريميتيف » (Sheremetyev) (٨٤) و « ستروجانوف » (Stroganov) (٨٥) و « أراكتشييف » (Arakcheev) (٨٦) و « دافيدوف » (Davidov) (٨٧) و «جوكوفسكى»

(* Kornevich Y.P. : Rodoviye nazvaniya i titluli v Rossii i shyaniye inozemzev s russkimi. SPb, 1886.

Zagoskin N. P. : Ocherki Organizatsii i proishojdeniya slujilogo soslo-viya dopetrovskoy Rusi. Kazan, 1875.

Kozlova K. I. : Etnografiya narodov Povoljya. M., 1964.

Ocherki po istorii tatarskogo iskustva. — Vestnik nauchnogo obshes-tva tatarovedeniya. 1927-7, s. 34-61.

Tatari srednego Povolgya i Priuralya. M., 1967.

Ba kakov N.B. : Seriya statey o russkih familiyah turkskogo proishoj-deniya. Sbornik po onomastike.

Essays on Tatar History. New Delhi, 1963.

Rocznik tatarskiy. t. 2, Wilno. 1935.

(Jukovskiy) (٨٨) و « شيرينســـــكى ــ شـــــاهماتوف » (Shirinskiy-Shahmatov) (٨٩) وآخرون ٠

وهناك عائلات من النبلاء الروس التى تحمل أسماء تركية ــ بولندية مثل « بزاريفسكى » و « سبوليفسكى » و « خاليتسكى » و « سولكيفيتشى » و « بوشاتسكى » و « بارانوفسكى » و « يوزيفوفيتش » و « آداموفيتش » و « كروتشكوفسكى » وغيرهم ، أو بمعنى آخر هم هؤلاء الأتراك الذين ظهروا فى روسـيا بعـد أن تم ضـم وبلندا بقوة السـلاح الى روسـيا القيصرية (*) ٠ ونجد بين الروس الأسماء الألمانية التى تعود بأصولها أيضا الى الأصول التركية ٠ وقد اكتسب حاملو هذه الأسماء ألقـابهم « فون بارون » فى بولندا وليتفانيـا ، ومن ثم نجد القـائد الفرنسى « نابليون » قد يكون على حق حين قال عبارته المشهورة : « ابحث عن الروسى تجده التتارى » ٠

ونرى فى اللغة الروسية مئات الألفاظ التى تعود بجذورهـا الى الأصول التركية ٠ وقد دخل جزء منها فى فترة ظهور مملكة بولجار على ضفاف نهر الفولجا ٠ ولم يكن ذلك التأثير نتيجة العلاقات الاقتصـادية والتجـارية والثقـافية ، بل كانت نتيجـة الامتزاج لجزء من البولجار مع الشعب الروسى ٠ وكانت الاتصالات بين البولجار والروس وثيقة منذ قديم الزمان ٠ وقد انعكست تلك الاتصـالات فى العادات والمناسك والمراسم والملابس والزخرفة لكلا الشعبين ٠ ولم تؤد هذه الاتصـالات والتأثيرات الى تغيير كيان الشعب الروسى والبولجارى ، لكنها أدت الى اثراء ثقافة كلا الشعبين ٠

ونعود مرة أخرى الى تاريخ شعب آخر وقع فى بؤرة غليان الأحداث التاريخية على مر العصور ، وهو الشعب الفارسى ٠ كانت دولة ايران القديمة تؤمن لفترة طويلة بتعاليم كتاب الأفستا ، وقد تعرض الشعب الايرانى منذ ذلك الحين لتغيرات ضخمة ٠ وكان الاغريق القدامى يعيشون على أراضى ايران ، وأضافوا خلال سنوات حياتهم الطويلة فى تلك البلاد اضافات جديدة ملموسة فى الثقافة وأساليب الحياة والديانة والعادات واللغة والأنثربولوجيـا للشعب الفـارسى ٠ ثم سقطت دولة ايران اثر الفتوحات العربية التى أتت بنظام جديد يتمثل فى الديانة والثقـافة والعادات الجديدة ، مما أدى الى تغيرات ملموسة فى كيان الفرس ٠ وفى فترة هجرات الشعوب الضخمة استقر عدد كبير من القبائل التركية فى ايران التى أتت بدورها بعناصر جديدة فى كيان الشعب الفارسى ٠ ثم

(*) Mulinskiy A. : Issledovaniya proishojdeniya i sosotyaniya litovskih tatar. Odessa, 1902.

عرفت بلاد ايران المغول والأتراك العثمانيين ، وتعرض سكانها لتأثيرات لا بأس بها . ولا يعرف الكثير أن الفرس القدامى كانوا شقرا ، ومن ذوى عيون فاتحة اللون . والآن ليس من الصعب أن نتأمل التغيرات الجذرية الملموسة التى حدثت فى كيانهم . وعلى الرغم من هذه التغيرات كلها بقى الفرس يطلق عليهم حتى الآن اسمهم القديم . والواقع أنه لم يبق من أوجه الشبه بين الفرس الذين نراهم اليوم ، وبين الفرس القدامى الا القليل . لقد تغير كيانهم لكن بقى أسمهم . ولا نرى فى ذلك شيئا غريبا ، بل على العكس نجد محافظة الشعب على اسمه تساعد على فهم تاريخه الصحيح وتشير رغم كل هذه التغيرات الى أنهم ورثة الحضارة الفارسية ، ما زالوا فرسا حتى الآن .

أما بالنسبة الى اسم البولجار فحدث فى تاريخهم عكس ذلك ، أى أننا لم نجد عندهم طوفان التغيرات والامتزاجات مثلما وجدنا فى تاريخ الفرس ، ولم تحدث التأثيرات الملموسة فى كيانهم مثلما حدث للشعب الروسى ، فالبولجار كانوا وما زالوا يسكنون نفس الأراضى لفترة تزيد عن ألف سنة على أقل التقدير ، لكن رغم ذلك تغير اسمهم الى التتار ، وقد فرض عليهم هذا الاسم عنوة وقسرا من ممثلى الشعوب الأخرى ، أو بمعنى أدق من زعماء المذاهب الايديولوجية الرسمية لتلك الشعوب .

من تاريخ أسماء الشعوب

« اثنونيم » (Ethnonim) مصطلح يفيد معنى اسم العشيرة أو القبيلة أو الشعب أو القومية ، ويتكون من كلمتين : « اثنو » بمعنى الشعب و « نيم » بمعنى الاسم (٩٠) • ويعكس كل اثنونيم قدرا قليلا من صفات الشعوب ، ولكنها أحيانا ليست حقيقية أو منصفة ، فالأمر يتعلق بهؤلاء الذين أطلقوا هذا الاسم ، أو بمعنى آخر هل كان هذا الاسم من اختيار الشعب نفسه أم أنه فرض عليه قسرا ؟

ويرى بعض العلماء أن الاسم الذى يختاره الشعب ، هو اسم حقيقى ويحتوى على بعض الحقائق التى تخص الشعب • ولم يتكون هذا الرأى بطريقة عشوائية أى من مجرد الاسم نفسه ، بل اعتمد على أساس التعرف على الشعوب وتواريخها • ويتم تحديد الاسم الحقيقى لأى شعب من صفات معينة له ، أى من اللغة والعادات والمناسك والاعتقادات وأساليب الحياة والثقافة وما يشبه ذلك • لكن اسم الشعب لا يعكس دائما صورة حقيقية له ، ومن ناحية أخرى لا تلعب صفاته المعروفة دورا ملموسا فى تحديد اسمه ، ونجد أحيانا نفس الصفات تتوافر فى شعوب بعيدة عن بعضها ومختلفة عن بعضها تماما • وتعد اللغة من أهم سمات الشعب ، لكن تصنيف الشعوب على الأسس اللغوية ليس مقياسا للصواب ، فلا داع أن نتكلم عن شعوب مختلفة تتحدث الانجليزية والفرنسية والاسبانية ، لأن الأمر هنا واضح لكل الناس واذا أخذنا على سبيل المثال الألمان والنمساويين الذين يتحدثون لغة واحدة ، نجدهم يختلفون عن بعضهم باختيار كلا الشعبين اسما لنفسه • وهناك شعوب على العكس من ذلك تماما ، فالنرويج مثلا يتحدثون لغتين ، وعلى الرغم من هذا لم يصبحوا شعبين مختلفين ، بل ما زالوا شعبا واحدا • ونجد أحيانا عند شعوب مختلفة فى اللغة كثيرا من السمات المشتركة فى أسلوب الحياة وحتى فى الثقافة • ويتراءى ذلك بوضوح عند التادجيك والأوزبيك وبعض الشعوب الأخرى فى آسيا الوسطى ، فهذه السمات المشتركة تعود الى العوامل الجغرافية • ومن ناحية أخرى نجد العادات والمناسك والاعتقادات وأساليب الحياة لا تكون دائما مشتركة بين أفراد الشعب نفسه ، فيختلف

مثلا شكل الملبس والمسكن واسلوب الحياة عند الروس الذين يسكنون شواطىء البحار ، وروس نهر الدون الذين يطلق عليهم اسم « كازاك » ، كما يوجد بينهم الاختلاف اللغوى • ثم نجد أساليب الحياة للطبقة الارستقراطية الروسية وعاداتها وملابسها تختلف بشدة عن طبقة العمال والفلاحين والموظفين الصغار ، بالاضافة الى أن هذه الطبقة الارستقراطية كانت تتعالى على اللغة الروسية ، لكن رغم ذلك كله لم تصبح هذه المجموعات البشرية شعوبا منفصلة أو مستقلة عن بعضها •

وهكذا نرى أن عناصر ثقافة الشعب المختلفة تترابط معا بطرق شتى • ونجد تمييز الشعب لغويا وارتباط هذه اللغة بالثقافة الروحية والمادية يحتويان دائما على خصائص معينة • ومن هنا اقترح بعض علماء الاثنوغرافيا آخذين فى الحسبان هذه الخصائص والتناقضات الظاهرية ، أنه « من الأفضل أن يتم تصنيف الشعوب وفق تقييم كل شعب لذاته » (*) • ويعارض العالم « شيننيكوف » ذلك الرأى بأن هناك بعض الأشخاص أو المجموعات البشرية ينسبون أنفسهم بمحض ارادتهم الى شعوب معينة ، وهذا يتناقض مع الرأى السابق ذكره • ويستطيع أى انسان أو مجموعة من الناس الانتساب الى أى شعب ، لكنهم لا يستطيعون أن يحملوا خصائص هذا الشعب الغريب عنهم روحيا وجسديا • ومن ثم فان هذا الرأى حول تحديد هوية الشعوب قد يؤدى الى عواقب وخيمة عند دراسة تاريخ شعب معين •

وفى الأزمنة الماضية عاشت القبائل فى عزلة تامة ولم تتصل بأناس يختلفون عنها ، ولم يكن لهذه القبائل أسماء لأنها لم تكن فى حاجة اليها • ومنذ فجر الانسانية وقبل ظهور الطبقية ، كان النظام القبلى يقسم الناس الى « الأقرباء » وهم من ذوى القربى وأفراد القبيلة ، و « الغرباء » • وكان كل غريب يعد منافسا أو عدوا (**) • واذا توثقت بين « الغرباء » الأواصر السلمية أصبحوا « أصدقاء » ، ومن هنا نجد بعض المتخصصين يشيرون الى أن التسميات الأولى للمجموعات البشرية تم اشتقاقها من هذه الصفات أى « الغريب » ، و « العدو » و « الصديق » وما الى ذلك •

وفى هذه الأزمنة الغابرة بدأ يظهر أيضا اثنونيم جديد من كلمة انسان ومشتقاتها • وكان الناس يسألون اذا التقوا بالغريب : من أنت ؟

(*) Shennikov A.A. : O ponyatii etnograficheskiy komplex. — V sb. : Dokladi otdeleniy i komissiy Geograficheskogo obshestva SSSR Vip. 3, Etnografiya, L., 1967, s. 40.

(**) Belyavskiy V. A. : Etnos v drevniem mire. — V sb. Dokladi otdeleniy i komissiy. s. 19.

وكان الغريب الذى لا يفهم لغتهم ، يجيب بأنه انسان وليس من الوحوش • ومن هنا تبدأ هذه الكلمة غير المفهومة تتناقل بينهم كاسم لذلك الغريب أو كاسم للشعب الذى ينتمى اليه •

ونجـــد أســـماء مثل « ترك » و « آر » (اودمـــورت اليـــوم) و « نينتسى » (٩١) و « اسكيمو » (٩٢) و « دويتش » (٩٣) وما الى ذلك تعود بجذورهـا الى كلمة « الانســان » و « الناس » و « الناس الحقيقيون » (*) ونستطيع هنا أن نضرب مثلا آخر لنرى كيف تتكون أسماء الشعوب على هذا الأساس • لقد انقرض كثير من قبائل الهنود الحمر بعد أن اتجه الأوربيون الى فتح العالم الجـديد فى أمريكا • وفى نهاية القرن التاسع عشر وجد البيض فى ولاية كاليفورنيا هنديا ساقه الجوع الى احدى السلخانات ، فاتضح أنه آخر من تبقى من القبيلة الهندية التى قضى عليها المستعمرون • وحين سئل الهندى : من أنت ؟ لم يفهم لغة البيض ، فأجاب قائلا بأنه « ايشى » أى الانسان فى لغة قبيلته • ونجد عالم الاثنوغرافيا المشهور « كريبر » الذى كرس حياته لدراسة حضارة الهنود الحمر ، يؤكد فيما بعد أن ذلك الهندى ينتسب بجذوره ولغته الى قبيلة « يانا » (**) •

وتعود أسماء بعض الشعوب بجذورها الى المظهر الخارجى للانسان أو الى شـكل الملابس ، فنجد اســم « كلوبوك الســود » فى تاريخ روسيا الكييفية هى ترجمة حرفية لكلمة تركية « قره قلباق » (٩٤) ، اذ كان من عاداتهم ارتداء غطاء الرأس أسود اللون • وقد أطلق الأوربيون على قبائل بعض الجزر اسم « بابو أس » أى ذوى الشعر المجعد • أما اسم « الأثيوبيون » فيعنى ذوى الوجوه السمراء •

وتتكون أسماء الشعوب من مصادر مختلفة ، فهناك الأسماء التى تفيد الحرفة أو مكان الاقامة أو الطباع أو رمز القبيلة وما الى ذلك • وعلى سبيل المثال اكتسبت احدى قبائل الهنود الحمر اسم « بحيل » من كلمة القواسين ، أما اسم قبيلة « تحته جى » فى تركيا فتعود بجذورها الى طبيعة العمل أى تحضير الأخشاب ، ويفيد اسم « الأسقوثى » تربية المواشى • واسم « دريجوفيتش » — ساكنى الغابات ، واسم قبيلة « نادجو » من شعوب كاليمنتان (٩٥) يعنى ساكنى الجبال • وقد أطلق على الزنوج فى منطقة « قالخاى » بافريقيا اسم « بوشمان » الذى يعود بجذوره الى

(★) Nikonov V.A. : Etnonimiya. — V sb. Etnonimi. M., 1970, s. 15-A.

(★★) Kreber T. : Ishi v dvuch mirah. Biografiya poslednego predstavitelya indeyskogo plemeni Yana. M., 1970.

اللغة الانجليزية بمعنى ناس الشجيرات أو الناس الذين يسكنون بين الشجيرات • واكتسبت قبيلة الهنود الحمر اسم « اتستيك » من الطقوس لآلهتهم ، وهي عبارة عن الثعابين المطلية باللون الأبيض ، فكلمة « آق » في لغة هؤلاء تعني الأبيض وكلمة « تسيلان » تعني الثعبان ، ومن ثم اشتق الأوربيون من هاتين الكلمتين اسم « اتستيك » • وهناك أسماء بعض الشعوب تعود الى اسم قائد القبيلة أو الى اسم المكان •

وقد ارتبطت بعض الأسماء بالمصادر الايديولوجية ، فمثلا اكتسبت قبائل جزر غينيا الجديد من المبشرين الأوربيين اسم «ناماو» أي الأغبياء • لأنها رفضت اعتناق الديانة المسيحية التي كانت من وجهة نظر المبشرين اكبر نعمة للبشرية •

ومن المعتاد اكتساب الشعوب والقبائل أسماءها من شعوب أخرى ، مع ذلك لم تتحرر بعض الأسماء من عوامل الصدفة والأحكام الذاتية المسبقة • وهناك بعض التسميات التي تحولت الى أسماء الشعوب ، قد قبلت كالأسماء الحقيقية لها ، وهناك تسميات فرضت من الخارج ورفضتها الشعوب ، بعد أن رأت فيها اهانة لها •

وكثيرا ما نجد في تاريخ أسماء الشعوب شعبا معروفا بأسماء مختلفة بسبب نقص المعلومات عنه ، ويحدث ذلك أيضـــا حينما تطلق شعوب مختلفة على شعب ما أسماء مختلفة • وعلى سبيل المثال يطلق عامة الناس من الأتراك على الروس حتى الآن اسم « كازاك » ، لأن اتصالهم الغالب كان بهذا الجزء من الشعب الروسي ، أما الشعب الكاريللي (٩٦) فيطلق على الروس اسم « كاريال » •

وكانت روســـيا الكييفية تطلق على الأتراك (القبجاق) اسم « بولوفتسي » و « تورك » ، أما أوربا فكانت تسميهم « قومان » ، وأطلق عليهم الجيران الشرقيون اسم « قبجاق » • ونجد في التاريخ شعوبا يطلق عليهـــا اسمين : كالشـــعب الجورجي المعروف بـ « جروزيين » و « جورجيين » •

ان تاريخ أسماء الشعوب مادة صعبة للغاية ، اذ لا يوجد حتى الآن بحث علمي مفصل حول أسماء الشعوب ، مما يشكل صعوبات غير قليلة في دراسة أصول بعض الشعوب وتواريخها ، وكثيرا ما يؤدي الى أحكام متضاربة ، بالاضافة الى أنه لا يوجد حتى وقتنا الحاضر تصنيف لأنواع الاثنونيم ، مما يقف حجر عثرة في اعداد بيان علمي لأسماء الشعوب نفسها • ونجد أول محاولة في علم الاثنونيميا يقدمها « تشلينوف » (*)

(*) Chlenov M. A. : O nekotorih indoneziyskih etnonimah. Sb: M., 1970. s. 99-100.

الذى يقترح تقسيم الأسماء الى مجموعتين : الأسماء الحقيقيــة والأسماء المستعارة • ويدخل المؤلف فى المجموعة الأخيرة التسميات التى تعود الى السمة الجغرافية (سكان منطقــة معينة : كالأفارقة والآسيويين وما الى ذلك) أو السمة الانتربولوجية (الزنوج ، البيض ، الحمر) أو الديانة (المسلمون ، المسيحيون ••••) أو التسمية التاريخية ـ الحضــارية (على أساس التمييز الحضارى مثل البرابرة والفور وما الى ذلك) أو التسمية الاجتماعية ـ السياسية (التكتلات البشرية فى مجموعات سياسية أو اجتماعية وليست عرقية ، كاسم الاسقوثيين مثلا) أو التسمية الوهمية (التكتلات التى ليس لها وجود فى الحقيقة كاســم التتار الذى أطلق على كل سكان سيبيريا والشرق الأقصى) (*) •

وتنقسم الأسماء الحقيقية وفق تصنيف « تشلينوف » الى الأنواع الثــلاثة : « ميكرو اثنونيم » (أى الأســماء التى تعــود الى المجموعات الاثنوغرافية لشعب واحد) و « الاثنونيم الأصلى » (أى اسم الشعب كله) و « ماكرو اثنونيم » (أى تكتلات الشعوب الضخمة مثل السلاف والترك والعرب وما الى ذلك) •

ولم يذكر هذا التصنيف كل أنواع الاثنونيم ، والمؤلف نفســه يعترف بهذا ، لكن ذلك التمييز بين أسماء الشعوب يعد دراسة جيدة تقدم بعض التوضيحات فى قضية معقدة ، وهى دراسة تاريخ أسماء الشعوب ودورها فى تحديد أصول الشعوب وجذورها •

(*) Ibid., s. 100

تسمية « التتار » واسم « البولجار »

كثيرا ما يؤدى اختلاف أنواع الاثنونيم الى اطلاق نفس الاسم على شعوب من أجناس مختلفة ، أو النظر الى مجموعات صغيرة لشعب واحد على أنها شعوب مستقلة قائمة بذاتها • ونجد هذا الخطأ بوضوح فى اسم التتار • وقد قلنا من قبل ان تسمية شعوب مختلفة باسم واحد تشير الى أن هؤلاء الذين أطلقوا هذا الاسم ، يجهلون لغة هذه الشعوب بثقافتها وتاريخها • وهناك أسماء وهمية تتعلق بموقف « المبشر » المتعمد ، وتكون أسبابها فى هذه الحالة سياسية أو ايديولوجية •

وكان الأتراك يطلقون على كل الأوربيين اسم الافرنج لأنهم احتكوا لأول مرة بالفرنسيين ، ومن ثم أطلقوا هذا الاسم على الألمان والانجليز وباقى شعوب أوربا • وكان كولومبوس وفيسبوتشى يبحثان عن الهند فاكتشفا أمريكا ، وكان فى اعتقادهما أنها أراضى الهند ، ومن هنا أطلق على كل سكان « العالم الجديد » اسم « الهنود » الذى تغير فيما بعد الى « الهنود الحمر » • ويختلف السكان الأصليون من شعوب أمريكا فى اللغة وأساليب الحياة ، كما يوجد بينهم الاختلاف الانثربولوجى ، والشىء الوحيد الذى يشترك فيه هؤلاء الناس أنهم يسكنون قارة واحدة ، ومن ثم يعد اسم الهنود الذى أطلق عليهم ، اسما مستعارا ، ظهر لمجرد تحديد المنطقة الجغرافية ، ويجب أن ينسب هذا الاسم وفق تعريف «تشلينوف» الى الأسماء الانثربولوجية المستعارة •

وكان العرب المسلمون يطلقون على الشعوب المسيحية اسم « الكفرة » ، أما الروس فكانوا يسمون كل شعوب أوربا الغربية «نيمتسى» أن الخرس ، أو شعوبا تتحدث لغات غير مفهومة • وبطبيعة الحال يؤدى استخدام الأسماء المستعارة (غير الحقيقية) الى صعوبة فهم أصول شعوب مختلفة وتواريخها • وفى الوقت نفسه يؤدى استخدام ميكرو اثنونيم وماكرو اثنونيم الى كثير من المشاكل والأخطاء والتعقيدات عند عرض أصول وتاريخ بعض الشعوب •

وفى أيامنا هذه نجد بعض الشعوب تنقسم الى قبائل وعشائر ومجموعات عرقية ، لكن هذه الظاهرة ليست قاعدة عامة ، فالتقسيم

القبائلى لم يكن موجودا عند الأسبان والفرنسيين والايطاليين والانجليز والأتراك العثمانيين والروس والأوكرانيين والاغريق (فيما عدا ايللين) (*) • ونستطيع أن نقول نفس الشيء بالنسبة للبلغار • لقد تم ادماج القبائل والعشائر البلغارية في شعب واحد قبل أن يهاجر جزء منهم الى أواسط نهر الفولجا ، فكان تاريخهم المديد الملئ بالأحداث وتنظيمهم العسكرى وتوحيدهم فى دولة واحدة أى فى دولة بلغاريا العظمى عاملا مساعدا لهذا • ولم يكن الاختلاف بين العشائر والقبائل البلغارية واضحا فى فترة انتقالهم الى نهرى الدانوب والفولجا • وهذه الفترة مهمة للغاية ويجب أن تؤخذ في الحسبان عند تحديد هوية البولجار • ومن هنا نستطيع أيضا تفسير ثبات كيان الشعب البولجارى عقب هجرته الى أواسط نهر الفولجا ، وهذا ما أشار اليه بانصاف الأستاذ الدكتور خاليكوف •

وما زالت التقسيمات القبلية موجودة حتى الآن عند بعض الشعوب ، ونرى ذلك عند الباشكير (٩٧) مثلا ، أما التقسيمات القبلية عند الكازاخ التى بقيت أيضا لفترة طويلة ، فتعد فى رأينا مرحلة ثانية لها ، اذ لم تكن هذه التقسيمات موجودة عند الجزء الأكبر من سلف الكازاخ من « دشت — قبجاق » (٩٨) •

واذا سجلت أسماء بعض قبائل بولجار الفولجا فى الفترة المبكرة مثل « السوفار » و « البيليار » ، الا أنها أسماء قد تكون مجرد أصداء الماضى التى لم يكن لها دور يذكر فى فترة هجرتهم الى ضفاف نهر الفولجا • وقد يكون ذلك لرغبة بعض الجماعات فى استيطان تلك الأراضى التى تتصل بذكرى قبائل قديمة وقريبة لها • وهذه الظاهرة طبيعية ، اذ نرى فى أيامنا هذه الناس حين يسافرون للعمل فى بناء المشروعات الضخمة ، يحاولون أن يكونوا أقرب فى مجال العمل أو محل السكن لهؤلاء الذين جاءوا من نفس البلد أو المنطقة •

وهناك أمثلة غير قليلة حيث نجد « التاريخ يقوم بتكوين الشعوب من قبائل قريبة أو بعيدة عن بعضها تماما ، والحفاظ عليها • وقد يكون التاريخ مشتركا فى حياة شعبين أو ثلاثة ، وقد يكون مختلفا لدى جزءين من شعب واحد • وعلى سبيل المثال نجد أن « الأنجلوساكسون » و « الكيلت من أويل » تم توحيدهم فى القرن الثالث عشر الميلادى ، لكن كلا الشعبين لم يندمجا فى شعب واحد • ومن ناحية أخرى نجد مصير الأرمن مختلفا ، اذ تم ضم الجزء الشرقى منهم الى ايران منذ القرن

(*) Gumilev L.N : O termine etnos. sb : Dokladi otdeleniya i komissiy geograficheskogo obshestva SSSR. Vip. 3. Etnografiya. L., 1967. s. 11.

الثالث ، وارتبط الجزء الغربي منهم منذ ذلك الحين ببيزنطة ، لكن وحدة الشعب لم تنهر » (*) وهنا نتساءل : ما تفسير مثل هذه الظاهرة فى تاريخ بعض الشعوب ؟ ألم تكن صلابة الشعب الأرمنى التى تكونت منذ قديم الزمان ، عاملا مهما فى الحفاظ على وحدة الشعب ، مما جعل اختلاف مصير بعض أجزائه عاجزا عن هدمها ؟ لقد أصبحت قوة الترابط بين أجزاء ذلك الشعب أقوى وأشد من تأثير الحضارة الفارسية والبيزنطية عليها • ولا شك فى أن هذه الصلابة تستمد جذورها من المستوى الراقى لحضارة الشعب ومن عاداته وتقاليده وعوامل رئيسية أخرى • ونجد أن « الأنجلوساكسون » و « الكيلت من أويل » لم يكونوا شعبا واحدا رغم وحدة مصيرهم التاريخى الذى امتد ما يقرب من سبعمائة عام • أما السبب فهو أن كلا من الشعبين قد تم تكوينه وتشكيله نهائيا قبل فترة دخوله فى اتحاد واحد • وهذا دليل قوى على أن أى شعب اذا تم تكوينه وتشكيله نهائيا ، وبلغ مستوى عاليا من الحضارة ، يصبح من الصعب أن يتعرض للتذويب • ونستطيع أن نقول هذا أيضا بالنسبة للبولجار ونجيب على السؤال المطروح : لماذا لم يتعرض الشعب البولجارى للتغيرات الملموسة ؟

ان شعوب « مارى » و « تشوفاش » و « باشكير » و « اودمورت » رغم وحدة مصيرها التاريخى أو تعرضها للغزو المغولى ، وتعايشها فى نطاق دولة واحدة منذ قديم الزمان ، ورغم الصلات الاقتصادية الوثيقة بينها والتأثيرات الحضارية المتبادلة ، لم تندمج فى شعب واحد ، ولم تذب فى شعوب أخرى • والجدير بالذكر هنا نظرية « يريمييف » الذى يزعم أن كثيرا من شعوب آسيا الصغرى والقوقاز (اذا سلمنا برأيه شعوب أواسط نهر الفولجا) تعرضت للتريك ، لأن « اللغة التركية تعد سهلة الاستيعاب لشعوب تتحدث لغات أخرى ، فاللغة التركية بسيطة من الناحية الصوتية ، والنحو التركى لا يشكل صعوبة خاصة فى لغة عامة الناس •••• ولا يوجد فى التركية تقسيم الأسماء الى المؤنث والمذكر المحايد ، ويتحول المفرد الى الجمع ببساطة شديدة دون أية استثناءات من القواعد الأساسية ، كما لا يوجد فيها الأفعال غير القياسية • أما تصريف الأفعال فبسيط للغاية ، اذ لم تتغير المادة الأصلية لأية كلمة • ولا يوجد صعوبة فى تكوين الكلمات » (**) •

ونحن نوافق تماما على تقييم يريمييف لسهولة التركية وكمالها ، بل يمكننا أن نضيف الى ما ذكره عددا من مزاياها وهى : عدم وجود حروف الجر فيها ، وتكوين الكلمات بواسطة اللواحق ، والتوافق الصوتى

(*) Ibid., s. 10.

(**) Yeremeev D. Y. : Etnogez turok. M. 1971. s. 233.

فى المقاطع وما يشبه ذلك . ومن المحتمل أن هذه الأسباب قد جعلت بعض الشعوب تستوعب احدى لهجات اللغة التركية بسهولة . ونأخذ على سبيل المثال جزءا من الاغريق والأرمن الذين استوطنوا البحر الأسود . لقد أصبحت اللغة التركية عندهم لغة الأدب ولغة الطقوس الدينية والعلاقات الدبلوماسية (يوجد حتى الآن فى جنوب أوكرانيا الاغريق الذين يتحدثون التركية) ، ولكن هؤلاء الاغريق والأرمن لم يتحولوا الى الأتراك أو القبجاق ، ولم تتغير هوية كلا الشعبين بثقافتهما وعاداتهما واعتقاداتهما ، فلم يجعلهما استيعاب اللغة التركية أتراكا .

واذا وجدت اللغة التركية انتشارا واسعا بين الشعوب وأدت الى تتريك شعوب آسيا الصغرى والقوقاز كما يدعى يريمييف ، فلماذا لم تغير هذه «الشعوب المتتركة» (*) عاداتها واعتقاداتها وثقافتها وتقاليدها ؟ واذا غير الاغريق والأرمن لغتهم الى التركية فى المناطق السابق ذكرها فلماذا لم يصبحوا أتراكا ؟ ثم لماذا لم تنتقل هذه اللغة « البسيطة وسهلة الاستعمال » الى الفرس والجرجيين والـلاق (٩٩) والليزجين (١٠٠) والكباردين (١٠١) وشعوب أخرى ؟ ولماذا لم تنتشر اللغة التركية الا فى مناطق محددة بالقوقاز ؟

ويقول يريمييف فى بحث آخر ان فترة الغزوات السلجوقية التى امتدت بين القرن التاسع والثانى عشر الميلاديين ، تحولت بعض القبائل والشعوب التركية فى آسيا الصغرى الى الأكراد ، أى أنها اندمجت وذابت فى الشعب الكردى بعد أن أخذت منه لغته وعاداته وطقوسه (**) . أمعقول أن يذوب الشعب الغازى الغالب فى الشعب الكردى المغلوب والمقهور ؟ وهكذا نرى تناقضا واضحا بين نظرية يريمييف التى أشرنا اليها من قبل ، وادعائه الأخير حول ذوبان السلاجقة فى الأكراد . ونحن هنا لا نريد الا اشارة الى بطلان نظرية يريمييف حول تتريك شعوب آسيا الصغرى والقوقاز ، وأن مثل هذه الحلول الساذجة فى المسائل العلمية لم تستطع أن تقنع المؤرخين وعلماء اللغة . ونجد حتى فى آرائه تجاه نفس المسألة تناقضا يجافى الصواب .

ولا يعرف التاريخ ظهور لغة جديدة بصورة مطلقة فى مناطق تسيطر فيها لغة واحدة ، وانتصار اللغة على الأخرى هو نتيجة الصراع الذى يستمر قرونا طويلة . وقد يؤدى انتصار شعب غريب فى اللغة

(*) الشعوب المتتركة : ما هذه الشعوب ؟ لا يجيب « يريمييف » على هذا السؤال .

(**) Yeremeev D.Y. : K semantike turkskoy etnonimii. V. sb. Etnonimi. M., 1970. s. 140-141.

الى انتصـــار لغته ، لكن هذه الظـاهرة ليست عامة ، لأن التاريخ يعرف أمثلة كثيرة حيث انتصرت لغة الشعوب المقهورة • ويرتبط هذا بمستوى الشعب الحضـــارى ومدى ترابط أفراده ، اذ ينحنى أمامه حتى تفوق الكثافة السكانية للشعب المنتصر • وعلى سبيل المثال نجد اللغة المغولية وهى لغة الشعب المنتصر ، لم تصبح لغة لأحد الشعوب المقهورة ، كما لم تصبح لغة الاغريق القديمة لغة شعوب امبراطورية اسكندر الأكبر ، ولم تحل اللغة التركية « البسيطة والسهلة » محل لغة شعوب أخرى فى الامبراطورية العثمانية •

ونعود مرة أخرى الى تاريخ بولجار الفولجا وامارة قازان • والمعروف أن امارة قازان لم تظهر بسبب غزو التتار أو شعوب اسطورية أخرى لا وجود لها ، على أراضى البولجار ، والقضاء عليهم وعلى حضارتهم ولغتهم وديانتهم واعتقاداتهم واسلوب حياتهم ، ولم تتحول لغة البولجار الى لغة المنتصرين الروس حتى بعد أن فاق عددهم مع مرور الوقت عدد البولجار أنفسهم • لقد تعرضت اللغـــة البولجارية مثل أية لغـــة أخرى للتغيير وفق ناموس التطور الطبيعي ، وخاصة بعد تأثر لغة الشعوب الناطقة بالتركية القريبة لها ، مما أدى الى اثراء المفردات اللغوية ، كما تعرضت لغة البولجار مثل كل اللهجات التركية لتأثير قوى من اللغـــة العربية ولبعض التأثير من الفارسية والروسية ، لكن هذه التأثيرات لم تؤد الى ظهور قواعد نحوية جديدة أو الى تغيير النظام الصوتى فى اللغة ، بل ساعدت على اثراء اللغة كما أشرنا اليه من قبل • وهذه الظاهرة طبيعية بل ضرورية ، لأنها تؤدى الى تطور اللغة أى اثرائها بمفاهيم جديدة •

وعند دراسة تاريخ تطور اللغـــات لا بد من الأخـــذ فى الحسبان الخصائص لبعض اللغات وصفاتها المميزة ، ثم مدى ثباتها أو ضعفها أمام التأثيرات المختلفة • ونجد فى علم اللغات الهندية ــ الأوربية نظرية تقول ان مفردات أى لغة تتغير بصورة مطلقة خلال ألفى عام ، لكن هذه النظرية قد تنطبق على اللغات الهندية ــ الأوربية ، لكنها لا تنطبق على كل لغات العالم ، لأنهـــا تتجاهل خصائص المجموعات اللغوية الأخرى • ويشير سليمانوف الى أن علماء اللغات الهندية ــ الأوربية طبقوا هذه النظرية « على كافة لغات العالم بغض النظر عن خصائصها • ويتضح بطلان هذه النظرية عند مقارنة اللغة التركية بتلك اللغات » (*)

واذا كانت اللغات الهندية ــ الأوربية قد تغيرت فى مفرداتها وصرفها فى فترة قصيرة وبصورة جذرية ، نجد اللغة التركية بكافة لهجاتها لم تتعرض للتغيرات الجذرية فى الفترة نفسها • وسبب هذا يعود فى رأينا

(*) Süleymenov O. : Az i ya. Alma-Ata, 1975, s. 210.

الى أن اللغة التركية قد بلغت مستوى راقيا فى تطور نظامها النحوى ، اذ تم تكوين قواعدها النحوية التى لا تعرف الاستثناءات ، وتبلور نظام اللغة وقواعدها • واللغة التركية لغة لصقية وتختلف عن اللغات الهندية ـ الأوربية ، فلا يوجد فيها حروف الجر ، ولا تتغير المادة الأصلية للكلمة ، ولا تتغير اللواحق ، و تتبع أصواتها قانون التوافق الصوتى ، أما النبر فى كلماتها فثابت دائما • والمعروف أنه كلما كثرت الصعوبات فى اللغة كثر معها عدد الاستثناءات ، وتصبح اللغة فى حاجة أشد الى تهذيب وتغيير •

ونحن لا نندهش أمام اكتشاف سليمانوف حول العناصر التركية فى لغة شومر ، وهى قريبة للغاية من مفردات التركية الحديثة ، لأننا كنا مستعدين منذ وقت طويل لمثل هذا الاكتشاف ، اذ أن مجال أبحاثنا تقريبا واحد • لقد اكتشفنا أعدادا ضخمة من الألفاظ التركية فى لغة الهنود الحمر فى أمريكا ، ووجدنا أن الكلمات التركية فى لغة قبائل الهنود الحمر « سيوداكوتا » و « مايا » و « اينك » و « أتستيك » فى أمريكا متشابهة ومطابقة للتركية الحديثة شكلا ومضمونا ، فمنها مفردات تعود الى عالم الحيوان ، ومنها الأسماء الجغرافية ، والمفردات المستخدمة لأفراد العائلة وذوى القربى ، ومنها الأفعال وما الى ذلك • بالاضافة الى أن هذا التطابق بين تلك اللغات تم اكتشافه فى قواعد النحو وطريقة تكوين الكلمة ، فضلا عما تميزت به هذه اللغات من التوافق الصوتى وتكوين الكلمة بواسطة اللواحق •

واذا أخذنا فى الحسبان أن استيطان أمريكا تم على أقل التقدير منذ عشرة آلاف سنة (هناك نظريات تقول منذ ٢٥ ـ ٥٠ ألف سنة ، وأخرى تقول منذ مائة ألف سنة) لأوقعتنا صلابة اللغة التركية وتعرضها للتغيير الطفيف فى حيرة شديدة ، وخاصة بعد أن قورنت باللغات الهندية ـ الأوربية• فهذا أشبه بالسلاح الذى تطول مدة خدمته ولا يتعرض للتغيير كلما استكمل جودته وكان مريحا للاستعمال •

وفى ضوء الحديث السابق نريد أن نشير الى حقيقة أخرى ، وهى أن ما بقى من الآثار التركية المكتوبة منذ القرن التاسع الى الثالث عشر الميلادى لم تختلف كثيرا عن التركية الحديثة • وعلى سبيل المثال نجد فى « ديوان لغات الترك » لمحمود القشغرى الذى يعود بتاريخه الى عام ١٠٧٢ م ، نماذج للغة البولجار مفهومة لدى تتار اليوم دون أى ترجمة • وهناك مثال آخر وهو كتاب « قوانين قومانيكوس » الذى ألفه المبشرون فى عام ١٣٠٣ م باللغة القبجاقية ، وهذه اللغة يفهمها تتار اليوم أيضا بسهولة • وقد استنتج العالم الأكاديمى « رادلوف » من الأبحاث أن لغة

ذلك الأثر أقرب الى لغة تتار مدينة قازان ، وأن اللغة التتارية الحديثة لم تتغير كثيرا منذ ذلك الوقت (*) ·

أما الآثار الأدبية التى كتبت باسلوب أدبى رفيع ويعود تاريخها الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، فلا يستطيع القارىء التتارى أن يقرأها اليوم بلا ترجمة لكثرة استخدامها للألفاظ العربية · لكن بعد أن تمت تنقية اللغة التتارية من الألفاظ الدخيلة أصبحت هذه اللغة أقرب الى لغة الآثار التركية المكتوبة التى تعود بتاريخها الى بداية القرون الوسطى · وهكذا نرى أن غلبة الألفاظ العربية والفارسية فى لغة البولجار لم تستطع أن تغير متن اللغة ونظامها النحوى ، وهذا مرتبط بلا شك بخصائص اللغة التركية التى سبق ذكرها ·

ومن ناحية أخرى اذا أخذنا المؤلفات القديمة للشعوب الهندية ـ الأوربية ، وعلى سبيل المثال مسرحيات شكسبير، وجدنا المخارج الصوتية فى لغة شكسبير يفهمها الانجليز بصعوبة بالغة · ومن هنا نستطيع أن نرى كيف تغيرت المخارج الصوتية فى اللغة الانجليزية منذ القرن السابع عشر · وقد اضطر الانجليز من أجل توصيل لغة تلك الفترة للمشاهد الانجليزى أن يلتزموا بقواعدها الاملائية ، وهى بعيدة عن النطق الحديث ·

واذا أخذنا الأثر الأدبى الروسى القديم « كلمة عن جيش القائد ايجور» فى صورته الأصلية وجدناه غير مفهوم لدى القارىء الروسى ، ولم يكن معروفا الا بعد أن ترجم الى الروسية الحديثة (**) · وهناك كتاب روسى آخر « رحلة أفاناسى نيكيتين الى الهند » الذى كتب فى زمن متأخر ، فهو أيضا صعب للقراءة فى النسخة الأصلية · ولم ينشر هذا الكتاب لجماهير القراء الا بعد أن ترجم الى الروسية الحديثة · اذن قراءة آثار اللغات الهندية ـ الأوربية القديمة فى صورتها الأصلية أمر صعب للغاية ، لكننا لا نستطيع أن نقول هذا بالنسبة لآثار اللغة التركية ·

وبعد هذه الرحلة القصيرة الى خصائص اللغة التركية بكافة لهجاتها ومنها اللغة التتارية ، نستطيع أن نقول ان لغة البولجار لم تتعرض للتغيير الملحوظ خلال ألف عام من اقامتهم فى أواسط نهر الفولجا · ولم تستطع غلبة الألفاظ العربية أن تمس بنيتها وتغير متن اللغة وصرفها وقواعدها النحوية · ولدينا أدلة قوية تثبت أن لغة التتار الحديثة هى لغة البولجار أى هى استمرار مباشر لها ، فهى لم تختلف عن لغة البولجار فى القرنين

(★) Radlov V. V.: O yazike kumanov po povodu izdaniya kumanskogo slovarya. Zapiski imp. Akademii nauk po istoriko — filologicheskomu otdeleniyu. 1884. t. 48. s. 1 - 53.

(★★) Molchanov V. : Prikosnoveniye k tayne. "Pdavda", 1976., 12 sentyabr.

الثامن والتاسع الميلاديين الا بقدر قليل ، ولم تتعرض للتغيير الملحوظ فى تطورها الطبيعى ٠

لكن متى بدأ اسم التتار يطلق على البولجار ؟ ومتى سميت لغتهم لغة تتارية ؟ ان أسماء الشعوب كما قلنا من قبل تطلقها شعوب أخرى ، لكنها لا تعكس دائما أسماء حقيقية لها ٠ وسنرى هذا بوضوح فيما بعد ، ثم سنرى دور الحكام السياسيين فى هذا الأمر ٠

وعقب قيام الثورة البولشيفية بذلت جهود لتغيير الأسماء المهينة لبعض الشعوب الى الأسماء الحقيقية،وتم الغاء الأسماء الغريبة التى فرضتها سياسة قياصرة الروس الاستعمارية على الشعوب المقهورة ، فعاد الأوكرانيون الى اسمهم الحقيقى بعد أن كان يطلق عليهم « مالورروس » ، و تغير اسم « اوستاك » الى « خانطى » (١٠٢) و « سامو ـ ييدى » (١٠٣) الى « نينتسى » و « تشيريميسى » الى « مارى » و « سارط » الى « اوزبك » الـخ ٠٠٠

ونحن لا نعلم مصدر اسم « البلغار » الذى اشتق منه « بولجار » و « بلكار » و « ملكار » ، فهناك تفسيرات مختلفة له لكنها كلها متضاربة ، لذلك بقى البحث عنه مجالا مفتوحا لعلماء اللغة ٠ وعلى أية حال قد يكون النصف الثانى من هذا الاسم مشتقا من الكلمة الفارسية « آر » « والتركية » « ایر » بمعنى المرء أو الانسان ٠

وربما أطلقت شعوب أخرى هذا الاسم ، وتقبله البولجار منذ قديم الزمان كاسم حقيقى لهم ٠ وكان البلغار يسمون أنفسهم بهذا الاسم حين نزلوا شمال القوقاز وضفاف بحر آزوف ونهر الدون ، لذلك أطلق على دولتهم « بلغاريا العظمى » ٠ ثم نقل البلغار هذا الاسم الى نهر الدانوب الذى أصبح اسما لشعب جديد أى بلغار الدانوب ، كما نقلوه الى ضفاف نهر قاما وأواسط نهر الفولجا الذى بقى اسما حقيقيا لهم على مر العصور ، ومازال يعيش فى وعى الشعب حتى أيامنا هذه رغم محاولات تسميته باسم التتار التى استمرت خمسمائة سنة ٠ وقد هاجر جزء من البولجار الى آسيا الصغرى والى البلاد العربية حيث كانوا يسمون أنفسهم باسم البولجار ثم المماليك ، حتى ذاب ما بقى منهم بين شعوب الأناضول وفقدوا أسمهم الحقيقى (*) ٠ وكانت العلاقات الاقتصادية والثقافية الوثيقة مستمرة بين البولجار وهؤلاء الذين هاجروا الى آسيا الصغرى والبلاد العربية (**)

(*) Tahir K. : Glubokoye ushelye. M., 1971.

(**) Amin Alholy, Svyazi mejdu Volgoy i i Nilom. 13-15 v.v.M., 1962. s. 40.

واحتفظ بهذا الاسم أيضا بقايا البلغار فى القوقاز المعروفين اليوم باسم « بلكار » • وكل هذه الحقائق تؤكد أن اسم البولجار أو البلغار قد استقر فى وعى الشعب وكيانه ، مما جعل مؤلفى الكتب باللغة العربية فى آسيا الصغرى والبلاد العربية يضيفون الى أسمائهم اسم « بلغارى » تأكيدا لأصولهم وجذورهم التى ينتمون اليها •

كيف يسمى التتار أنفسهم اليوم ؟

فى الجزء الرابع عشر من الموسوعة التاريخية السوفيتية ما يأتى : « وقد أصبحت بعض الشعوب التركية تطلق على نفسها اسم التتار » · ونفهم من هذا أن الشعب المعروف بهذا الاسم اليوم قد أطلق على نفسه اسم التتار بمحض ارادته كوصف يناسب ويعكس أصوله ، ومن ثم فان اسم التتار اسمه الحقيقى · واذا عدنا الى الحقائق التاريخية والوثائق بل الى ذاكرة الشعب نفسه ، نستطيع أن نرى كيف يخالف مثل هذا الادعاء الواقع ويجافى الصواب ·

لقد أطلق على دولة البولجار اسم « بولجاريا » (بلغاريا العظمى) التى ذاع صيتها فى روسيا وفى بلاد الشرق الأقصى وجنوب أوروبا · وعلى الرغم من أن اسم التتار يطلق على هذا الشعب اليوم الا أن هناك بعض الشعوب المجاورة تطلق عليه اسما آخر ، فنجد مثلا الاودموورت يطلقون على التتار حتى الآن اسم « بيجارى » أى البولجار ، أما الكازاخ فيطلقون عليهم اسم « النوغاى » أى القبجاق الشماليين ·

وكان الرحالة العربى ابن فضلان الذى زار بلاد البولجار على ضفاف نهر « ايديل » « الفولجا » فى عام ٩٢٢ م · يكتب أن لهم شعراء وعلماء يضيفون الى أسمائهم « بلغارى » نسبة الى بلادهم · ويذكر ابن فضلان ورحالة الشرق الآخرون أسماء بعض المؤرخين البولجار مثل : يعقوب ابن نعمان البلغارى وأحمد البولغارى ، واسم الفيلسوف حامد بن حارس البلغارى · ومن الآثار الأدبية التى تعود الى فترة دولة بولجار الفولجا كتاب « نهج الفراديس » لمحمود بن على البلغارى الذى ألفه فى عام ١٣٥٧ م ، وهناك حسام الدين مسلم البلغارى الذى قام بتأليف « تواريخ بلغاريا » فى القرن الثامن عشر ، والشاعر « مولى قولى » الذى عاش فى الفترة نفسها ، وكان يضيف « بلغارى » الى اسمه نسبة الى بلاده ·

وقد انتشرت طباعة الكتب التتارية فى القرن التاسع عشر بمدينة قازان · وبدأت المؤلفات تظهر تلو الأخرى ، فكان كثير من مؤلفيها يضيفون الى أسمائهم صفة « بلغارى » ، واستمر هذا حتى مشارف القرن العشرين · وكانت الكتب حينذاك تنشر بأبجدية اللغة الأم أى اللغة التركية · غير أننا

نجد بين هذه الكتب أحيانا استخدام صفة « اللغة التتارية » ، وهذا يعود الى أن المؤلفين عند اعداد كتبهم للقارىء الروسى ، وهى عبارة عن الكتب المدرسية والقواميس ، كانوا مضطرين أن يسموا لغتهم « تتارية » ، لأن الروس فى ذلك الوقت قد نسوا اسم البولجار ، ولم يعرفوا ذلك الشعب الا باسم التتار · وفى النصف الثانى من القرن التاسع نجد العالم التتارى المشهور « قيوم نصيرى » يطلق للسبب نفسه على لغته « اللغة التتارية » ، ولكنه فى أبحاثه التاريخية والاثنوغرافية وفى علم الآثار يقول ان التتار سلالة مباشرة للبولجار ، وتعود أصولهم وفق شجرة النسب الى البولجار · وقد اضطر المؤلفون رغم ارادتهم أن يستخدموا فى مؤلفاتهم اسم التتار بسبب انتشاره بين الروس ، مشيرين فى الوقت نفسه الى أن هذا الاسم لا يناسب أصولهم ولا يعكس اسمهم الحقيقى ·

واعتاد البولجار بطريقة شفهية معرفة شجرة نسبهم التى تمتد الى الجيل التاسع · لكن كانت هناك أسر تسجل شجرة نسبهم فى الكتب التى تنتقل من جيل الى آخر ، فأصبحت وثائق تثبت وتقر الصلة المباشرة بين البولجار وتتار اليوم · وكان « مئات المؤلفين القدامى يستخدمون اسم « بلغار » و « بلغارى » و « بلغارلق » منذ القرن الثانى عشر حتى التاسع عشر (فى رأينا من القرن الثامن حتى التاسع عشر) ، ما يمكن تأكيده من مجموعة المصادر الموثوق بها لدى العلماء ». (*) وهذا يؤكد وعى الشعب بأصوله واسمه الحقيقى ·

وكان الشعب يميز نفسه عن المغول الذين كانوا معروفين باسم التتار ، ولم يخلط نفسه بهم · وفى ذاكرة الشعب وتراثه الشفهى نجد أمثالا تستعمل حتى الآن وتشير الى موقف الشعب تجاه المغول أى التتار ، ونذكر منها بعض الأمثلة :

« Tatar atasin satar."	ــ يستطيع التتارى أن يبيع أباه ·
« Tatar atka minse atasin tanimas. »	ــ اذا امتطى التتارى حصانا لم يعد يعترف بأبيه ·
« Tatar bilen kabirin yanasha bulmasin. »	ــ تجنب الجيرة مع التتارى حتى فى القبر·

والتاريخ لا يعرف أمثلة لشعب يسخر من نفسه بهذا القدر من القسوة والحدة أو يهين نفسه بمثل هذه الأمثال ، لأن ذلك يخالف طبيعة

(*) Usmanov M.A. : Tatarskiye istoricheskiye istochniki. 17-18 v. v. Kazan 1972, s. 139-140.

الأمور • وهذا التقييم الذى نجـده فى التراث ، يوضح أحسن من أى رسالة علمية موقف الشعب تجاه التتار • ومن ثم فان الادعاء بأن اسم التتار هو اسم حقيقى ، أو أن الشعب أطلق هذا الاسم على نفسه يعد جهلا فادحا •

ونجد أن فى أساطير الشعب وأغانيه وحكاياته يتردد كثيرا ذكر جبل « قاف » أى جبال القوقاز التى صورها الشعب مكانا لالتقاء القوى المعادية ومكانا للشر والمعارك • ويعد هذا أيضا فى رأينا من آثار بقيت فى ذاكرة الشعب عن ماضيه القديم بمنطقة شمال القوقاز قبل هجرته الى أواسط نهر الفولجا •

وكان العلماء الروس الذين درسوا تاريخ التتار ، يرون بوضوح أن ضمهم الى المغول أمر خاطىء • ونجد «ريتشكوف» وهو من مؤرخى القرن الثامن عشر الميلادى ، يشير فى كتابه « خبرة تاريخ قازان فى قديم الزمان والعصور الوسطى » (١٧٦٧) الى أن أهل مدينة قازان ليسموا التتار ، وأن هذا الاسم الذى نسب اليهم ، هو سوء الفهم التاريخى • وكان هذا الكتاب الذى اعتمد على الوثائق الروسية ، هو أول محاولة لاثبات أصول الشعب الحقيقية ، ومنع ظاهرة الخلط بين التتار (البولجار) والمغول التى بدأت فى التاريخ الروسى • ويأتى الكاتب بأمثلة كثيرة لتأكيد رأيه وموقفه من هذه القضية ، فنجده على سبيل المثال يقول : « حين كان « باطيرشا » (١٠٤) يحرض الشعب الباشكيرى على القيام بالثورة كان يطلق فى خطابه على مسلمى هذه المنطقة اسم البولجار » (*) •

وهناك المستشرق الروسى المشهور « جريجوريف » وهو عالم التركيات فى الوقت نفسه ، يعبر عن تقديره العميق تجاه أبحاث « قيوم نصيرى » الاثنوغرافية التى كانت تشير منذ عام ١٨٣٦ م • الى أن « تتار قازان وسيبيريا كانوا يسمون أنفسهم « بولجار » و « بولجارلق » وهم يبيعون الملابس فى شوارع المدن الروسية » • (**) أى أنهم كانوا فخورين بأصولهم وواعين بانتمائهم القومى •

وفى عام ١٩٠٩ م • نجد « اليسوف » يرد على الافتراءات المستمرة حول أصول التتار فى مجلة « الفكر الروسى » ويشير الى أنه اذا سئل التتارى « عن قوميته لم يقل انه التتـارى ، وهو على حق من المنظـور الاثنوغرافى ، لأن هذا الاسم دليل واضح على سوء فهم التاريخ » (***) •

(*) Richov P. : Onit Kazanskoy istorii drevnich i srednich vekov. S.P.B. 1767.

(**) Grigoryev V. V. · Voljskive tatari. Biblioteka dlya chteniya, 1836. t. 19., otd. 3, s. 24.

(***) Alisov G. : Musulmanskiy vopros v Rossii. Ru skaya misi. 1909. — 7. s. 29.

كما نجد العلماء الروس الذين اهتموا بأصول التتار ودرسوها من المصادر الأولى ، لا يضمونهم الى الغزاة أو يخلطون بينهم • ونستطيع أن نضرب أمثلة كثيرة من كتابات وملاحظات هؤلاء العلماء ، لكننا نكتفي هنا بمثال واحد : كان أحد الثوار الديموقراطيين ارلوس « تشيرنوشيفسكى » يعرف جيدا تاريخ التتار وثقافتهم وحياتهم ويعرف اللغة التتارية التى ساعدته فى دراسة تاريخهم من المصادر القومية • ويشير « تشيرنوشيفسكى » فى كتابه الى أنه يشك فى أنه « قد بقي بين تتار القرم وقازان واورنبورج أحد يعود بأصوله الى جنود « باطى » ، وأن تتار اليوم هم سلالة تلك القبائل التى كانت تسكن هذه المناطق وخضعت مثل الروس للمغول (*) •

ونجد أيضا أن علماء أوربا الغربية الذين عرفوا التتار ليس من المؤلفات الأدبية وانما من اتصالاتهم المباشرة بهم ، يشيرون الى أن النظرة الى تسود بلادهم حول أصول التتار ، تخالف الحقيقة ، لأن هذا الشعب هم بولجار من أصل تركي • وهناك العالم الألماني « أوليارى » الذى قام بزيارة نهر الفولجا في العقد الثالث من القرن السابع عشر ، يطلق عليهم « تتار — بولجار » (**) • أما الدبلوماسى البولندى « جربرشتاين » الذى كان يعرف التتار قبل أن تخضع امارة قازان للدولة الموسكوفية ، فيقول: « اذا أراد أحد أن يكتب عن التتار لاضطر أن يصف قبائل كثيرة وهى التى كانت تسكن هذه المناطق وخضعت مثل الروس للمغول (*) •

وفى بداية القرن التاسع عشر قام «جومبولد» بزيارة روسيا ، وكان يهتم بأصول التتار ويحادث التتار أنفسهم فى تاريخهم • وتوثقت فيما بعد عرى الصداقة بينه وبين العالم التتاري سيف الله ، مما جعله يستخدم أبحاثه وملاحظاته عند وصفه لمناطق روسيا الشرقية • ويشير « جومبولد » فى كتـابه الى أنه يتبع عرف الأدب الغربى عند استخدامه لاسم التتـار ، لكنه « لم يعن بهذا الاسم المغول وانما يعنى شعبا من القومية التركية العظمى » (****) •

والى جانب هؤلاء الذين اتصلوا بالتتار اتصالا مباشرا وعرفوهم عن

(★) Chernishevskiy N. G.: Antropologicheskiy prinzip v filosofii V kn. Izbranniye filosofskiye sochineniya. t. 3., M., 1951., s. 245-246.

(★★) Olearly A. : Opisaniya puteshestviya v Moskoviyu i cherez Moskoviyu v Persiyu i obratno. 1905., s. 408.

(★★★) Gerbershteyn S. : Zapiski o Moskovskih delah. 1908., 138.

(★★★★) Gumbold A. : Puteshestviye Barona A. Gumbolda. s 18-19.

قرب كان هناك المؤلفون الغربيون الذين لم يعرفوا التتار الا من الكتب الأدبية ، فخلطوا بينهم وبين المغول وجعلوهم ـ سلالة مغولية • وللأسف الشديد كانت هذه النظرة تسود أيضا الأدب الروسى قبل قيام الثورة ، لكن رغم ذلك كان هناك مشـــاهير المؤرخين الروس مثل « كرمزين » (Karamzin)و « سولوفيوف » (Solovyev)و « كلوتشيفسكى (Kluchevskiy) وآخرون الذين لم يخلطوا بين التتار والمغول ، وكانوا يعتبرونهم سلالة البولجار • ونرى هذا أيضا فى أبحاث العلماء الروس فى اللغة والتاريخ والتركيات الذين درسوا الثنوغرافيا وحضارة ولغة التتار دراسة مباشرة • ونجد فى الموسوعة الروسية التى تجمع استنتاجات أبحاث علماء التركيات الروس ، اشارة واضحة الى أنه « لا يوجد أى آثار للعنصر المغولى الآن بين القبائل الناطقة بالتركية » • ونرى فى موسوعة أخرى السطور التالية : « التتار • هذا المصطلح أقرب أن يكون تاريخيا من كونه اثنوغرافيا ، اذ لا يوجد التتار كشعب مستقل » (*) ثم نقرأ فى مكان آخر : « ان مصطلح الترك ــ التتار يساوى كلمة « تركى » • أما اسم التتار فى أوربا الغربية فيعنى حتى الآن مجموعة شعوب مختلفة تماما فى اللغة والأصول » • ونتابع قراءة السطور التالية : « لقد رفض اسم التتار فى العلم تماما من حيث تطبيقه على المغول والطنغوز (١٠٥) ، لكنه مازال يطلق بسبب سوء الفهم التاريخى على بعض الشـــعوب الناطقة بالتركية فى الامبراطورية الروسية فى مقابل بقيـــة الشعوب الناطقة بالتركية التى تحمل أسماء تاريخية مستقلة كالقرغيز والتركمان (١٠٦) والأوزبك وآخرين » (**) •

ونجد أن بداية الخلط المتعمد بين التتار والمغول ينتشر فى الكتب التاريخية الروسية فى القرن التاسع عشر ويزداد قوة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين • لقد حاول العلماء التتار فى هذا الوقت العصيب أن يوضحوا بطلان ذلك الخلط مستعينين بالحقائق التاريخية ، لكن مؤلفاتهم لم تنشر بسبب وقوعها تحت اضطهاد الرقابة القيصرية • ونجد أن العمل الوحيد الذى تم نشره فى القرن التاسع عشر ، هو للعالم التتارى « شهاب الدين مرجانى » ، اذ كتبه المؤلف باللغة العربية التى لم تكن مفهومة لدى رجال الرقابة • و « مرجانى » صاحب المعجم الببليوغرافى الذى يقع فى ستة أجزاء ويضم تقريبا جميع الشخصيات المهمة فى الشرق الاسلامى منذ ظهور الاسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر • وقد اعتمد هذا العمل الضخم الذى أطلق عليه موسوعة الشرق ،

(*) Brokgauz., Nefron : Enziklopedicheskiy slovar., Sp. b., 1901., t. 64, s. 671.

(**) bid., t. 67., s. 347.

على دراسة عدد ضخم من المخطوطات الشرقية فى آسيا الوسطى والبلاد العربية وتركيا وقازان • وللكاتب أبحاث كثيرة فى تاريخ الأويغور والسلاجقة والخوارزميين وشعوب تركية أخرى • وقد امتاز الكاتب بعمق معرفة تاريخ شعوب الشرق ودقته المتناهية وأمانته العلمية ، مما جعل أبحاثه ومؤلفاته مصدرا قيما ومهما لتاريخ شعوب حوض نهر الفولجا وآسيا الوسطى والأناضول والبلاد العربية • وكان العالم الأكاديمى « رادلوف » (V. V. Radlov) يعرف « مرجانى » معرفة شخصية وقرأ أبحاثه • وفى المؤتمر الرابع للآثار الذى عقد فى قازان عام ١٨٧٧ ، عرف « رادلوف » استنتاجات بحث « مرجانى » وسماها خطوة جديدة فى تاريخ « التتار » •

وقد قدم « مرجانى » عند تناوله تاريخ البولجار ، تحليلا موضوعيا ، واستعان فى ذلك بمجموعة ضخمة من الحقائق العلمية التى تبين أن تتار اليوم هم سلالة مباشرة للبولجار القدامى • ونجد « مرجانى » فى أحد أعماله حول تاريخ البولجار وامارة قازان حيث اعتمد على دراسة الحقائق الاثنوغرافية فى المصادر الشرقية القديمة ، يشير الى انتقال مباشر لحضارة ولغة البولجار الى التتار (*) • لكن للأسف الشديد مازالت معظم أبحاثه منسوخة بخط اليد حتى أيامنا هذه ، أما أعماله التى نشرت ، فمن الصعب التعامل معها أيضا ، لأنها مكتوبة باللغة العربية والتتارية الفصحى (١٠٧) •

وهناك العالم المعاصر « جوميليف » الذى يستطيع التعامل مع المصادر المحلية والمصادر الشرقية والغربية ، حين يتحدث فى كتابه عن قرابة شعوب روسيا يذكر العلاقات التى كانت تربط بين روسيا القديمة والبولجار — الترك ، وكيف ظهر اسم التتار • ويتفق حديثه هذا تماما مع القضية التى نثيرها على صفحات هذا الكتاب • يقول « جوميليف » : « لقد مضى ألف عام منذ عقد المعاهدة السلمية بين دولتين عظميين فى أوربا الشرقية : روسيا الكييفية ودولة بولجار الفولجا • وعلى الرغم من دخول السلاف فى الديانة المسيحية وتمسك الترك بديانتهم الاسلامية فقد وطدت هذه المعاهدة العلاقات بين الشعبين التى استمرت حتى غزو جيوش «باطى» أى قرابة مائتين وخمسين سنة • ومن سخرية القدر أن يطلق اسم «التتار» على سلالة هؤلاء البولجار الذين يشكلون الكثافة السكانية الكبرى فى أواسط نهر الفولجا ، ويطلق على لغتهم « اللغة التتارية » ، لكن هذا يعد عبثا وتشويها للحقائق » (**) •

(★) شهاب الدين مرجانى : « مستفيد الأخبار فى احوال قازان والبلغار » • الجزء الاول ، قازان ١٨٨٥ م

(★★) Gumilev L. : Korni nashego rod tva, — Izvestiya. 1988., 13 apr.

وفى بداية القرن العشرين أى فى أعقاب الثورة الروسية الأولى بدأت تظهر أبحاث جديدة حول أصول التتار التى كان محظورا نشرها من قبل، حين كانت رقابة السلطة القيصرية نرى فى أى بحث حول تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية خطرا قد يؤدى الى ايقاظ الوعى القومى لدى الشعوب المقهورة . ومن بين أبحاث هذه الفترة يجدر الاشارة الى كتاب « بلغار تاريخى » (قازان ١٩١٠) للمؤرخ الديموقراطى « أحميروف » الذى يعرض تاريخ أصول التتار ويؤكد مرة أخرى أن التتار هم البولجار ، وذلك من خلال دراسة تحليلية مقارنة لعادات ولغة وديانة وطقوس وزخرفة وفنون وقطع أثرية وباليوغرافية جديدة .

وقد أثار الخلط بين التتار والمغول الغزاة الذى ازداد فى الكتب الرسمية ، مناقشات حادة بين العلماء على صفحات الجرائد اليومية التتارية حول أصول الشعب وخاصة فى جريدة « شورى » و « آنك » . وكانت الغالبية العظمى ممن اشترك فى تلك المناقشات تستعين بالحقائق والمصادر والمادة العلمية وشهادة المتخصصين ، وتؤكد مرة أخرى صواب آراء العالم « مرجانى » حول أصول تتار اليوم . وقد أدى ذلك الى المطالبة برفض اسم التتار الذى فرض عليهم قهرا ، واعلان الاسم الحقيقى للشعب وهو البولجار . وكانت هناك مجموعة من المؤرخين الذين أيدوا أصول الشعب البولجارية ، لكنهم اقترحوا اعلان اسم « الترك » بحجة أن اسم البولجار يذكرنا باسم البلغار أى الشعب البولغارى الذى يسكن الآن حوض نهر الدانوب أما اسم الترك فيؤكد على صلة الرحم التى تربط بين التتار والشعوب الناطقة بالتركية ، كما أنه مفهوم لدى شعوب أخرى أكثر من اسم البولجار .

وكان ممن اشترك فى تلك المناقشات هؤلاء الذين حاولوا ايجاد الأصول المغولية فى تكوين الشعب التتارى الحديث . وقد اعتمدوا فى « نظريتهم » على كتب التاريخ الروسية الرسمية التى كانت تخلط بين التتار والمغول وتدعى أن التتار هم سلالة المغول . ونجد أن هؤلاء الذين أيدوا هذا الاتجاه كانوا من القوميين المتطرفين ، وأرادوا بتأكيدهم على اسم التتار استغلال انجازات المغول الحربية ورفع شأن أنفسهم . لكن

هذا الرأى الذى بنى على الرمال وعبر عن الاتجاه القومى المتطرف لم يجد تأييدا ، كما لم يكن ثمة اتفاق بين مؤرخي هذا الاتجاه أنفسهم حول أصول التتار · وعلى سبيل المثال يقول « حادى أطلاسى » فى كتابه ان « التتار هم الغزاة الذين قاموا بتدمير دولة البولجار على ضفاف نهر الفولجا » ، لكنه يقول فى مكان آخر ان « التتار كانوا يسمون أنفسهم دائما «بولجار» ، وسموا أحيانا أنفسهم بالترك والمسلمين لكيلا يدمجوهم مع التتار » (*) · وبذلك يعارض المؤلف نفسه ويعلن رفضه لاسم التتار الذى وسم به شعبه ·

(*) حادى أطلاسى · قازان تاريخى · ص ١٥ ، قازان ١٩١٠ م ·

منوعات حول أسماء « الترك » و « التتار » و « المسلمون »

وقد أثارت الصحافة التتارية الآراء حول قضية اختيار اسم الترك أو المسلمين بدلا من التتار • وفى الوقت نفسه ظهرت حركة مضادة يقودها ممثلو الكنيسة والايديولوجيون الروس الذين لم يفهموا جوهر القضية وربما لأنهم لم يريدوا أن يفهموا شيئا منها ، فتعمدوا تقديم أصحاب هذه الآراء والمقترحات على أنهم مؤيدو حركة « بان ــ تركية »(الجامعة التركية) و « بان ــ اسلامية » (الجامعة الاسلامية) •

والمعروف عند كل علماء التركيات أن كلمة « ترك » تنطق فى اللغة الروسية بطريقتين مختلفتين • أما كلمة « ترك » فى اللغة التركية فتعنى تسمية شاملة وعامة لكل الشعوب الناطقة بالتركية ، وبهذا المعنى كان يستخدم مصطلح « تركى ــ تتارى » و « تتارى ــ تركى » مثلما يستخدم مصطلح « سلاف » و « فينو ــ اوغوريون » للتعبير عن شعوب من أصل واحد ولغة واحدة • لكن « تتاروفوب » أى المبشرين المسيحيين ومؤرخى الامبراطورية الروسية كانوا يفسرون كلمة « ترك » بمفهومهم الخاص ، اذ فسروا ظهور المقالات فى الصحافة التتارية القومية حول قضية اختيار اسم الترك للشعب بأنها مساعى التتار الى الاتحاد مع الأتراك العثمانيين فى دولة واحدة ، أو رغبتهم في الانتقال تحت حماية الدولة العثمانية والانضمام اليها ، مع أنهم لزموا الصمت عن آلاف الكيلومترات والمساحات الشاسعة التى كانت تفصل بينهم • وهكذا تم تفسير رغبة التتار فى اعلان اسم « الترك » اسما حقيقا للشعب بأنه انتشار ايديولوجيا الجامعة التركية بين الجماهير الشعبية ، ومن ثمة تم تلفيق الضجة حول خطورة هذا الاتجاه الذى أثار رعبا في الصالونات القيصرية • ويشير الأستاذ الدكتور « نافيجوف » الى أن هذه الضجة كانت تسعى « لصرف اهتمام الجماهير الشعبية عن قضاياها الاجتماعية والحفاظ على السيطرة عن طريق تحريض الشعوب ضد بعضها » (*) •

(*) Nafigov R. I. : Formirovaniye i razvitiye peredovoy tatarskoy obshestyenno-politicheskoy misli. (Ocherk istorii. 1895-1917) Kazan 1964, s. 53.

ومع هذه الضجة بدأت « المعركة » ، فقد تكونت شبكة واسعة من عملاء البوليس السرى الذين تلقوا من السلطات أمرا بتلفيق أدلة تثبت الحركة المتزايدة لنشاط الجامعة التركية بين التتار · ودارت « طاحونة » المعركة حتى انضمت اليها مؤسسات الحكومة والرقابة والصحافة ولم يستثن منها حتى الرقابة المدرسية · وكان ذلك كله يروق المبشرين الذين تطوعوا بنشاطهم ضد « حركة الجامعة التركية » ، فبدءوا يعلقون فشلهم فى تنصير التتار على شماعة جرائم الجامعة التركية الوهمية · وانضم الى تلك المعركة الأثرياء المفلسون وصناع الأحذية السكارى والناس من الطبقات السفلى لأنها كانت توفر لهم خبزا ورزقا سياسيا · وقد تعمد هؤلاء الوشاية بالقوميين ــ الديموقراطيين وأصحاب دور النشر المتقدمة والكتاب والمدرسين والصحفيين والجمعيات الخيرية والمدارس الدينية ·

ومن هنا بدأ تفسير نشاط القوى الوطنية من أجل الاستقلال وتطوير نظام المدارس واللغة بأنه حركة متزايدة للجامعة التركية بين التتار التى ستأتى بعواقب وخيمة · أما المبشرون وأجهزة « أبطال الامبراطورية » ودور النشر والصحافة الرسمية فأخذوا يدقون نواقيس انتشار حركة الجامعة التركية بين التتار التى تهدد العرش الملكى والكنيسة وروسيا العظمى التى « لن تنقسم ولن تغيب عنها الشمس الى الأبد » ·

وكان بين التتار اقتراح آخر أى اعلان « المسلمون » اسما للشعب ، لكن هذا الاقتراح تم تفسيره أيضا فى صالح النظام الملكى وسياسة قياصرة الروس الاستعمارية التى بنيت على تحريض شعوب ضد أخرى · وقد فسر هذا الاقتراح بأنه ظهور حركة « بان ــ اسلامية » أى الجامعة الاسلامية · وهكذا أثيرت ضجة أخرى حول حركة الجامعة الاسلامية على أنها حركة شاملة بين التتار ·

وقد بدأ الاتهام الموجه ضد التتار فى حركة الجامعة التركية والجامعة الاسلامية يتسرب الى الأدب والصحافة الروسية غير الرسمية حتى استطاع أن يؤثر فى وعى جماهير الشعب الروسى · ومن هنا تكونت حلقة أخرى حول « خطر » هؤلاء التتار من « سلالة المغول » الذين يهددون الشعب الروسى والديانة المسيحية · وكان من الصعب على الانسان البسيط أن يفهم دقائق الأمور وخفاياها ، بالاضافة الى ذلك فان المتطرفين من رجال الكنيسة والمدارس المسيحية آنذاك قد نجحوا فى حشو وعى جماهير الشعب الروسى بأسطورة « التتار الأنجاس » الذين أتوا الى روسيا بمصائب لا حصر لها · وكان العمال البسطاء والناس غير المثقفين أو الذين تلقوا قدرا قليلا من التعليم ، يصدقون أن كل هؤلاء الذين انضموا الى حركة الجامعة التركية والجامعة الاسلامية يكونهم « تتار » هم سلالة الغزاة المغول

أنفسهم . وفى مثل هذه الظروف لم تكلف الحكومة نفسها جهدا خاصا لتحريض المسيحيين ضد « بسرمان » (أى المسلمين) و « ماجوميتان » (أى المحمديين) والتتار . ومما يثير الضحك حقا أن السلطة القيصرية كانت تستهين باختلاف مفهوم أصول التتار كسلالة المغول عن الضجة التى أثيرت حول حركة الجامعة التركية ، اذ كانت لديهم أسباب اتهام التتار بالجامعة المغولية أكثر من اتهامهم بالجامعة التركية أو الجامعة الاسلامية .

وقد لاحظ أحد المبشرين تأثير المدارس الروسية وأفكارها المتقدمة على نمو وعى التتار القومى والاجتماعى ، وأشار فى كتابه الذى صدر فى عام ١٨٨١ م . ، الى أن « السحابة المحمدية الضخمة أخذت تغزو الآفاق ، لكن هذا الغزو الجديد ليس من المغول وانما من المسلمين أنفسهم ، وليس من برابرة آسيا بل من البرابرة المثقفين الذين تلقوا تعليمهم فى المدارس والجامعات والمعاهد العسكرية وتعرضت أفكارهم لتأثير الصحف الروسية » (*) . وهكذا نرى أن هذا المبشر كان فى صالحه أن يربط استيقاظ الوعى القومى بالحركة الاسلامية ، وكأنما التتار تعلموا الاسلام **من المدارس والجامعات والصحف الروسية .**

وكان «بوجدانوف» (D. Boghdanov) أحد رجال المراقبة على حركة النشر التتارية يجيب على سؤال رئيس المخابرات بمدينة قازان حول انتشار حركة الجامعة التركية والجامعة الاسلامية بين التتار قائلا : « ان لفظ الملة الاسلامية اشارة مباشرة الى « بان ـ اسلاميزم » (حركة الجامعة الاسلامية) ، لأن كل هؤلاء الذين يتبعون سنة الرسول محمد وهم ثلثمائة مليون نسمة ، يطلق عليهم إسم «قاردشلر» (الاخوة) ، أما لفظ الترك فاشارة الى حركة الجامعة التركية » (**) . ويقول محافظ مدينة قازان فى تقريره الموضوعى والشامل حول ميول المسلمين الجدد : « ان ظهور التيار التقدمى بين المسلمين الذى اصطبغ بألوان زاهية من الحركة القومية ، جدير بأن يحظى باهتمام السلطات بصورة جدية » (***) . أما « بنيجين » (Pincgin) وهو رئيس اللجنة المؤقتة لشئون صحافة قازان ، وخادم الرقابة القيصرية المخلص الذى اكتسب خبرة ثلاثين عاما من عمله بالرقابة على الصحف التتارية ، وادرك جيدا كل التيارات الفكرية المنتشرة بين التتار ،

(*) Harlampovitch K. V. : P. P. Maslovskiy i yego perepiska s. N. I. Ilminskim. Kazan. 1907., s. 3.

(**) Tsentralniy gos. archiv TASSR., f. 420. d. 134. 1. 14

(***) Ibid. f. 420., d. 256., 1. 2.

فيقول : « ان هدف التتار المثقفين هو الاتحاد الأيديولوجى لكافة الشعوب والقبائل التركية على أساس وحدة اللغة ، والحفاظ على الهوية القومية مع الاقتباس من الثقافة الأوربية ٠ وهذا لا يتناقض مع ميول سواد الشعب الذى يرفض فكرة القومية ويعد كل المسلمين شعبا واحدا » ٠ ويشير فى مكان آخر الى « أن النبرة العامة فى صحف قازان وطنية للغاية ، لكنها لم تظهر مع بداية الحرب الألمانية ــ النمساوية ، وانما مع تحركات تركيا ٠ واذا تتبعنا نشاط حركة المسلمين الوطنية نستطيع القول ان نبرة الصحافة التتارية تناسب ميول الشعب التتارى (*) وهكذا نرى أن ذلك الخادم الأمين لم يجد فى الحركة التتارية شيئا من حركة الجامعة التركية والجامعة الاسلامية التى كانت السلطات البوليسية والتبشيرية تراها فى كل حرف مكتوب بالخط العربى وفى كل كلمة مطبوعة وتنطق باللغة التركية ٠ ونحن لا نستبعد أصداء حركة الجامعة التركية والجامعة الاسلامية التى وفدت الى الفكر الاجتماعى التتارى بواسطة ممثلى الحركة القومية فى بداية القرن العشرين ، لكنا لا نستطيع أن نوافق على أن هذه الحركة قد نالت انتشارا واسعا بين جماهير الشعب ٠ وهنا يجدر بالاشارة أن هذه القضية لم يتناولها البحث العلمى بصورة كافية حتى الآن ، وكان من الضرورى أن نذكرها بسبب الاستخدام السيىء لمصطلح «الترك» و « الشعوب الناطقة بالتركية » و « المسلمون » ، لأن بدونها من المستحيل فهم المسألة التى يدور حولها حديثنا ٠

والأمثلة السابقة تؤكد أهمية الدقة فى تحديد اسم الشعب الحقيقى ، لأن العبث بالمصطلحات قد يؤدى الى نتائج سيئة للغاية ، والى تلفيق وافتراء وتشويه تاريخ الشعب وأصله ٠ وحينما أطلق التتار على أنفسهم اسم الترك كانوا بذلك يعبرون عن انتمائهم اللغوى ، أما حين سموا أنفسهم بمسلمين ، فكانوا يريدون الاشارة الى انتمائهم الدينى وتمييز ديانتهم عن الديانة المسيحية أو اليهودية ٠ كذلك نجد الروس والأوكرانيين والروس البيض يطلقون على أنفسهم « سلاف » أى أنهم ينتمون بلغتهم وأصولهم الى المجموعة السلافية ، أما حين يقولون انهم «ارثوذكس» فيميزون أنفسهم بذلك عن المسلمين أو هؤلاء الذين ينتمون الى طرق مسيحية أخرى ٠ وهذه الأسماء أسماء عامة نجدها عند كل الشعوب تقريبا ٠

ومازال مصطلح « تركى ــ تتارى » و « تتارى ــ تركى » يستخدم حتى الآن فى أبحاث علماء التركيات الروس وفى أبحاث علم اللغة بصفة عامة داخل حدود الدولة وخارجها ٠ وكان العالم الكبير « كاتانوف »

(*) Ibid. f 420., d. 256., l. 5-6.

(N. F. Katanov) يجيد التركية بكافة لهجاتها تقريبا، واستخدم هذا المصطلح بمعنى واحد أو بمفهوم واحد . كما استخدم العالم « وليخانوف » مصطلح « تتارى » و « تتارى – تركى » و « تركى » لكل الشعوب الناطقة بالتركية ولهجاتها (*) . ونستطيع أن نقول هذا أيضا بالنسبة لأبحاث علماء التركيات واللغة والتاريخ قبل قيام الثورة التى كانت تستخدم هذه المصطلحات بنفس المفهوم . وتقول « بلاجوفا » فى ملاحظاتها عن الأدب الروسى : « وكان يتضافر بشكل غريب مصطلح التركى مع مصطلح التتارى والتركى – تتارى » (**) . وقدمت المؤلفة بحثا عن استخدام مصطلحات « تركى » و « تتارى » و « تركى – تتارى » و « تتارى – تركى » بمفهوم واحد ، وأشارت الى تاريخها المعقد . وتقول الباحثة مستعينة بأدلة كثيرة ان هذا التعقيد الاصطلاحى واختلاط الأمور كثيرا ما كانا يؤديان الى تشويه تاريخ بعض الشعوب التركية وتتويه العلماء وجماهير القراء .

وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قام العلماء المشهورون فى علم التركيات مثل « رادلوف » (V. V. Radlov) وسامو يلوفيتش » (A.N. Samoylovitch) و « بارتولد » (V. V. Bartold) و « باستريمسكى » (S. V. Yastremskiy) وآخرون يطالبون بالقضاء على خلط المفاهيم وتحديد هذه المصطلحات التى تفسر حسب أهواء المؤلفين ، لكن قوة التقاليد الموروثة التى استمرت قرونا طويلة ، كانت أرسخ من الجبال صمودا ، لدرجة أصبحنا نشاهد فى أيامنا هذه الاستخدام الخاطئ لهذه المصطلحات حتى فى مؤسسة التركيات العلمية أى فى مجلة « علم التركيات السوفيتية » .

وكما أشرنا اليه من قبل فان كثيرا من العلماء والكتاب التتار والشخصيات الاجتماعية البارزة فى القرنين التاسع عشر والعشرين قد حاولوا تنظيم هذه القضية ، لكن كل محاولاتهم كانت تفسر فى الصحافة ودور النشر الرسمية بأنها حركة الجامعة التركية . ونجد «ساموبلوفيتش» يشير فى كتابه الى أن الكتاب التتار كانوا يحاولون بمؤلفاتهم تمييز أصول شعبهم التى اهتم بها العلماء الروس التقدميون . وكانت هذه الشخصيات التتارية البارزة يقصدون منع استخدام اسم التتار بالنسبة لشعبهم وتغييره الى اسم الترك أو البولجار (***) . ثم يشير المؤلف الى مجموعة المتحمسين الروس الذين كانوا يصورون كل المحاولات من أجل تحديد اسم الشعب

(*) Valihanov. C. : Sobraniye sochineniy, t. 1., s. 210., 452.

(**) Blagova G. F. : Variantniye zaimstvovaniya "turok", "turk" i ih leksicheskoye obosobleniye v russkom yazike. "Tür-kologischesky sbornik, 1972.", Mostkva 1973., ~. 117.

(***) Samoylovitch A. N. : V. V. Radlov kak turkolog. Noviy Vostok. 1922., 2., s. 25.

الحقيقي بأنها ظاهرة « بان ـ تركية » (الجامعة التركية) بدأت تنتشر بين التتار . ويقدم العالم ملاحظاته الدقيقة ويقول ان هذا « ينير الضحك ، لأن الوعي القومي الذى نضج بين الشعوب الناطقة بالتركية فى روسيا قد أدى الى رفض الأسماء التى فرضها الاستعمار والمطالبة باعلان الاسم الحقيقي . وليس من الغريب أن يصبح الاسم الحقيقي هو اسما شاملا الترك » (*) . وهكذا نرى أن هذه الظاهرة كانت تقدمية ولم تقتصر على تتار مدينة قازان ، بل شملت جميع الشعوب الناطقة بالتركية فى روسيا التى أطلق عليها اسم التتار . وللأسف الشديد مازال « التتار » يستخدم كالمعتاد بمعنى المغول ـ التتار والامبراطورية التتارية حتى فى أيامنا هذه أى فى أيام اعادة البناء والديمقراطية فى المجتمع . ولم يتحرر من تأثير هذا التقليد القديم وجبروته كبار الكتاب مثل « يفتوشينكو » (Y. Yevtushenko) و « أبراموف » (F. Abramov) و « بروسكورين » (P. Proskurin) و « شاتروف » (M. Shatrov) فضلا عن هؤلاء الشعراء الجدد الذين كلفتهم الحكومة السوفييتية اعداد موضوع « حب الوطن » ، فأصبح عندهم سب وشتم « التتار الأوباش » بمثابة الواجب الوطني العظيم .

ويعرف القارىء السوفيتي جيدا الكاتب « تشيفيليحين » (V. Chivilihin) وخاصة روايته « الذكرى » حيث اعتمد المؤلف فيها على المصادر التاريخية . ونجد الكاتب على الرغم من اسرافه فى حسم المسائل المتعلقة ببعض القضايا التاريخية وايمانه العميق بادعاءات العالم «ريباكوف» (B. A. Ribakov) وآرائه غير الموثوق بها ، الا أنه يعترف ببطلان المقارنة بين التتار والمغول . ولنأخذ كلام المؤلف نفسه الذى يقول فى كتابه : « وكما كنت أقول فى أول صفحات هذه الطبعة من الكتاب ان التتار اسم شامل ومصطلح تقليدي لتلك الجيوش التى تكونت من قبائل مختلفة وهاجمت روسيا فى عام ١٢٢٣ و ١٢٣٧ و ١٢٤٠ م . فلم يكن لها أى روابط قومية مع أجداد تتار الفولجا الذين نراهم اليوم . أما جذور تتار قازان فتمتد الى العصور الغابرة وتتصل بذلك الشعب العظيم الصامد الذى شيد دولته القوية والغنية فى العصور الوسطى قبل الغزو المغولي وهى دولة بلغاريا (بولجاريا) على ضفاف نهر الفولجا » . ثم يذكر الكاتب بطولات بولجار الفولجا الذين أحرزوا مع جيرانهم نصرا مبينا على جيوش القائد المغولي « سبوداى » فى عام ١٢٢٣ م . لكنهم ما لبثوا أن أصبحوا ضحية الحملة المشتركة لجيوش « باطو » و « سبوداى » الأولى الى الغرب . وكان ذلك الشعب من الأوائل الذين ثاروا ضد المغول ، ويدفع فدية للامبراطورية

(*) Blagova G.F. : op. cit., s. 125.

الذهبية مثل الروس ، فهل يكون من الصواب من وجهة النظر التاريخية واللغوية أن نردد اليوم الحديث عن النير التتارى الذى وقع على التتار أنفســهم ؟؟

أما المصطلح التقليدى « غزو المغول ـ التتار » أو « نير المغول ـ التتار » فلا يعكس بوضوح التكوين العرقى لفاطنى السهوب الذين هاجموا روسيا فى القرن الثالث عشر ، ولا يلقى الأضواء على الطبيعة الاجتماعية والطبقية والسياسية للامبراطورية التى استبدت بقسوة كثير من شعوب آسيا وأوربا فى العصــور الوسطى • وحين نستخدم هــذه المصطلحات الشائعة التى ربما من الصعب ايجاد بديل لها ، يجب علينا أن نأخذ دائما فى الحسبان واقع الظروف التى أدت الى الأحداث التاريخية العظمى فى ذلك الوقت » (*) •

ونحن نوافق الكاتب تماما فى أنه من الخطأ أن نخلط بين الغزاة .. المغول والتتار الذين نراهم اليوم ، لكننا نعترض على أن هذه المصطلحات شــائعة الاســتخدام ومن الصــعب أن نجد بديلا لها • لقد نشرت هذه المصطلحات فى أبحاث المؤرخين ـ المستشرقين منذ زمن بعيد ، فأطلق على « المغول ـ التتار » اسم « الغزاة المغول » أو « جيوش باطى » أو « جيوش جنكيز خان » أو « الأورديون » • وعلى الرغم من أن هذه الأسماء لم تكشف لنا هوية جيوش المغول الا أنها أقرب الى الحقيقة •

وعقب قيام الثورة البولشيفية رفضت كثير من الشعوب اسم التتار الذى فرضه عليها الاستعمار ، وأعلنت فى البداية اسم الترك ، لكنها خشية من خلط الشعوب الناطقة بالتركية وحفاظا على هويتها أعلنت فيما بعد أسماء جديدة مثل الأوزبك والأزريين وما الى ذلك •

ولا شك فى أن مقاومة التتار ضد الاسم الذى فرضه الاستعمار ، ومحاولة تغييره الى الاسم الحقيقى أى « الترك » أو « البولجــار » كانت ظاهرة تقدمية أملاها التاريخ ، ولم يكن لها أى صلة بحركة الجامعة التركية أو الجامعة البلغــارية التى اختلقها الأيديولوجيون للنظــام القيصرى والمبشرون والموظفـون فى البــوليس السرى ، ثم أخــذ يرددها العلماء الاجتماعيون من ذوى المصالح الخاصة •

واسم « البولجار » هو اسم حقيقى لتتار الفولجا ، فقد حمل الشعب هذا الاسم ما يقرب من ألف عام ودافع عنه بوعى كامل • وهذا دليــل

(*) Chivilihin V. : Pamyat. Roman — esse. Kn. 2, L. 1983., s. 571-568.

واضح على أن الشعب كان يعلم أصوله وانتماءه العرقى الى الشعوب التركية • وقد أبدى الشعب استعداده لاعلان اسم شامل – الترك – او مصطلح دينى « المسلمين » ليس من أجل تعصبه لشىء ما ، وانما من أجل التخلص من تلك التسمية المهينة التى فرضت عليه قسرا •

وكان مفكرو السلطة والمبشرون و « الموظفون الوطنيون » يسبون التتار بسبب انتمائهم الى الدين الاسلامى ، فكانت كلمة « المسلم » تنطق من أفواه رجال الكنيسة بهدف الاهانة « بسرمان » و « بسرمانين » ، وتحمل معنى عدو الديانة المسيحية والكافر والهمجى • لكن الشعب لم يقبل اسم المسلم كاهانة له ، لأنه كان يعبر عن انتمائه الدينى ، لذلك فهو لم يبال بذلك الاستخفاف •

والمعروف أن اسم المسلم أو الاسلامى كان يستخدم فيما بعد بمعنى قريب من الاثنوغرافيا ، ونكتفى هنا بالاشارة الى استخدام هذا الاسم فى أعقاب عام ١٩١٧ م • بالنسبة لتتار الفولجا وشعوب اسلامية أخرى • وفى سنوات الحرب العالمية الأولى تم تكوين – فى الجيش الأحمر – الفرق والفيالق الاسلامية من التتار والباشكير المسلمين ، كما تم تكوين « اللجنة الاسلامية الاشتراكية » و « اللجنة الاسلامية » وفروعها بمناطق الفولجا وأورال وسيبيريا كمؤسسات الحكومة الاشتراكية للشئون القومية ، فلم يطلق عليها أحد اسم مؤسسة حركة الجامعة التركية ، لكن اذا ظهرت مثل هذه المؤسسات الاسلامية قبل قيام الثورة لأطلق عليها حركة الجامعة الاسلامية •

وكما سبقت اليه الاشارة فقد استبدلت بعد قيام الثورة البولشيفية الأسماء المهينة التى فرضتها سياسة قياصرة الروس الاستعمارية على كثير من شعوب الامبراطورية الروسية ، لكن اسم التتار بقى يطلق على البولجار ، وبقيت معه بطبيعة الحال صورة التتار التى كانت تغرس فى ذاكرة الشعوب قرونا طويلة كسلالة الغزاة المغول • لكننا لم نجد بين مؤلفات اليوم الا بحثا واحدا حيث يدافع فيه صاحبه عن اسم التتار وهو بحث للمؤرخ التتارى « غبيدولين » (Gubaydulin) • وكان المؤلف فى أول أعماله « أأتراك نحن أم تتار ؟ » (قازان ١٩١٨ م • باللغة التتارية) يعارض بشدة اسم التتار ويقترح اعلان اسم الترك كاسم حقيقى للشعب ، فيعلل ذلك بأن اسم التتار لايتناسب مع أصول الشعب من وجهة النظر الاثنوغرافية والانثربولوجية واللغوية • ولم تمض عشر سنوات حتى نجد نفس المؤلف ينادى بالمحافظة على اسم التتار (*) •

(*) Gubaydulin G. : K voprosu o proishoždenii tatar. Vestnik nauchnogo obshestva tatarovedeniya. 1928., — 8., P. 131-142.

لكن آراءه لم تتغير في هذه الفترة حول أصول التتار ، اذ أنه يشير الى عدم وجود شيء مشترك بين المغول والتتار الذين نراهم اليوم • وعلى الرغم من ذلك يقترح المحافظة على اسم التتار ، لأنه يرى أن الروس وشعوبا أخرى قد اعتادت تسمية الشعب باسم التتار منذ زمن بعيد ، وأن تغيير الاسم سيؤدى الى خلط الأمور • ويوجـــد في ذلك بلا شــك جزء من الحقيقة ، فلا داع لاثارة المناقشة حوله • ويشير المؤلف في مكان آخر الى أن محمود القشغرى من علماء التركيات القدامى يذكر في كتابه « ديوان اللغات التركية » قبيلة « تتار » وهى في رأيه قبيلة تركية ، مما يعطينا حق المقارنة بينها وبين تتار اليوم • وبالمناســـبة نذكر هنا الادعــاءات الشبيهة لها للعالم الباشكيرى « غريبوف » الذى يرى أن تتار اليوم هم سلالة هؤلاء التتار • وقد اعتمدت ادعاءاته أيضا على أن « محمود القشغرى كان يضم التتار والباشكير الى الأتراك » (*) • ومن هنا بدأ تفسيره بأنه كان يوجد في منطقة مانجوريا شعب تركى معروف باسم التتار ومنهم انحدرت أصول التتار الذين نراهم اليوم •

وفى حقيقة الأمر كان محمود القشغرى يتحدث فعـــلا عن التتار الذين عاشوا فى القرن التاسع الميلادى على الحدود المتاخمـــة للصين ، وهم من احدى القبائل المغولية التى قضى عليها « جنكيز خان » • لكن القشغرى لم ينسب هؤلاء التتار الى القبائل التركية ، اذ نجده يقول : ان قبائل « قاى » و « قباق » و « تتار » و « باصيل » تتكلم لغاتها ، لكنهـا تعرف أيضـــا التركية » (**) واذا أكد القشغرى على أن هؤلاء التتار يتكلمون لغتهم فالأمر واضح للغاية أن لغتهم ليست تركية ، وانهم يفهمونها فقط • وهكذا نجد « غريبوف » يقتطف لأســباب غير معروفة الكلمات التى تناسب رأيه ، و « يكتشف « أن التتار كانوا داخل حدود منغوليا فى القرن التاسع ويتكلمون اللغة التركية ، ثم زحفوا مع المغول الى أواسط نهر الفولجا ، وانحدرت منهم أصول التتـــار الذين نراهم اليوم • ويترتب من رأيه أن التتار ليسوا سلالة البولجار • ونريد أن نذكر فى هذا المكان العالمى الأكاديمى « بارتولد » الذى كان يؤكد لنا أن « لغة هؤلاء التتار تختلف عن التركية ، وكان محمـود القشغرى يعلم هذا » (***) ومن هنا نرى أن «غبيدولين» و «غريبوف» لم يفهما القشغرى،

(*) Garibov. : Mahmud Kashgari i kipchakskiye yaziki Uralo-Povoliya. Sovetskaya turbologiya. 1972., — 1., s. 47.

(**) Kononov A. N. : Mahmud Kashgari i yego "Divan lugat et-turki". Sovetskaya turkologiya 1972., — 1., s. 13.

(***) Bartold V. V. : Sochineniya., t. 5., M., 1968., s. 559.

وعلى الرغم من هذا فقد حاول كل منهما بهذا الفهم الخاطىء أن يكتشف شيئا جديدا ٠

ويدافع «غبيدولين» عن رأيه بقوله : « هناك شعوب كثيرة اكتسبت أسماءها من الغزاة ٠ ونستطيع أن نقول ان الشعب الروسى قد تعرض للذل والاضطهاد من الفارياج الذين حكموه ، ورغم ذلك لم يترك اسم « روسيا » وهى كلمة فارياجية ٠ وهكذا الأمر بالنسبة للفرنسيين » ٠ ونحن هنا لانريد أن نذكر تاريخ أسماء الشعوب وأصولها ، لكنا نريد أن ننبه القارىء الى شيء واحد : وهو أن كلمة « روسيا » أو « الروسى » أو « الفرنسى » لاتكمن من ورائها المعانى السلبية كما هو الأمر بالنسبة لاسم التتار ٠ ثم اذا سلمنا بهذا الرأى لكان يجب على شعوب أخرى معروفة باسم التتار أن تحتفظ بهذا الاسم ، لأنها كانت تحت سيطرة المغول أيضا ، وكانت تنسب وقتا طويلا فى كتب الآداب الى سلالة المغول٠ لكن هذا الاسم قد رفض تماما من قبل الأزريين والأوزبك وغيرهم ٠

وهناك دليل آخر عند « غبيدولين » وهو أن اعلان اسم البولجار سيؤدى الى الخلط بين تتار اليوم وبين بلغار نهر الدانوب ٠ لا شك فى أنه يوجد فى ذلك جزء من الحقيقة ، اذ نجد فى الكتب أمثلة يتضح من خلالها الخلط بين بلغار الدانوب وبلغار دولة بلغاريا العظمى ٠ وهذا بطبيعة الحال يعود الى مستوى الباحث العلمى وسعة اطلاعه ٠

أما فى أيامنا هذه فقد امتازت المصطلحات بالدقة ، فأصبح يطلق على بلغار الدانوب اسم البلغار ، وعلى بلغار نهر الفولجا اسم البولجار ٠ وعلى الرغم من وجود تشابه فى النطق بين الكلمتين الا أنه لا يشكل صعوبة علمية ٠ ولا يخلط القارىء فى الأبحاث التى تتحدث عن تاريخ بلغار الدانوب ، بين بولجار الفولجا وبلغار الدانوب ٠ أما فى الأبحاث العامة حيث يحتمل وجود هذين المصطلحين ، فيستطيع المؤلف أن يضيف كلمة «الفولجا» أو « الدانوب » للتمييز بين الشعبين ٠ وهذا يتم بالفعل عند دراسة تاريخ بلغار الدانوب وبلغار الفولجا القدامى ٠ طبعا من الافضل أن تكون أسماء الشعوب غير متشابهة من ناحية النطق ، لكننا لا نستطيع أن نضع هذا مقياسا أساسيا لاثبات الاسم الحقيقى لتتار اليوم ٠ وهناك أمثلة كثيرة لأسماء متقاربة فى النطق وتعود الى شعوب مختلفة مثل : هنود وهنود الحمر ، أو سلاف وسلوفاك وسلوفين (١٠٨) وما الى ذلك ٠ وهكذا نرى أن مخاوف « غبيدولين » ليست خطيرة لدرجة أن نرفض اسم البولجار ٠

واليوم نجد الشعوب العربية بأصولها المختلفة تسكن أكثر من

عشرين دولة وتنتمي الى أجناس وديانات مختلفة ، فالشعب المغربي مثلا يختلف عن الشعب اللبناني او اليمني ، وحتى مواطنو دولة واحدة كلبنان يختلفون في أصولهم العرقيه • لكن رغم ذلك كله لا يقترح أحد تغيير اسم العرب الى اسم آخر • ربما تشكل تسمية شعوب هذه الدول باسم واحد بعض الصعوبات في دراسة تاريخها وحضارتها ، الا أن تلك الشعوب لم تترك بهذا السبب اسمها الحقيقي ، فلا تخاف من اللبس حول أسمائها • ويمكننا التغلب على هذه الصعوبات باضافة صفة مميزة لبلد أو ميلرو - انونيم ، ثم لغة البشر ثرية للغاية حتى تستطيع التغلب على أى صعوبات اصطلاحية •

وحجة « غبيدولين » الأخيرة لم تأخذ في الحسبان أمرين أولهما : ان البلغار الذين فرضوا سيطرتهم على قبائل نهر الدانوب السلافية ذابوا بينها ، بينما لم يترك المغول تأثيرا ملحوظا على البولجار • لقد تعرضت قبائل الدانوب عقب الاندماج مع البلغار لتغيرات ملحوظة في العادات والتقاليد والموسيقى وأساليب الحياة ، أى أن هذا الاختلاط قد أدى الى ظهور شعب جديد • ثانيهما : ان تغلغل البلغار الى الدانوب لم تصحبه حروب ، بل تم بطريقة سلمية • ولم يذكر التاريخ العداوة أو المناوشات بين البلغار الوافدين والقبائل المحلية ، ومن ثم فقد تم الاندماج من كلا الطرفين بلا صعوبة •

ورأى « غبيدولين » حول ظهور المشاكل بعد تغيير الاسم ليس دليلا مقنعا • ثم نجد المؤلف يناقض نفسه حين يقول : « ان تاريخ الامبراطورية الذهبية ليس جزءا أساسيا لتاريخ تتار الفولجا •• » وأن هذا التاريخ « هو تاريخ كل الشعوب المذكورة التى وقعت تحت سيطرتها • وهذه الشعوب متقاربة ولها صلات وثيقة من الناحية الحضارية وخاصة من الناحية اللغوية » (*) اذن هذه الملاحظات لاتعد دليلا أو برهانا لضرورة تسمية البولجار باسم التتار •

البلغار والبلكار والبولجار

لقد سبق أن طرحنا من قبل سؤالا وهو : هل بقي جزء من البلغار في الأماكن التى كانوا يسكنونها ؟ أليس البلكار وشعوب شمال القوقاز الأخرى هى أيضا من سلالة البلغار القدامى ؟ وقد أثيرت بين المؤرخين واللغويين مناقشات ومجادلات عديدة استغرقت زمنا طويلا حول أصول البلغار القدامى ، لكنا نترك هذه القضية لأصحاب التخصص ونحاول

(*) Gubaydulin G. : op. cit., s. 141.

الاجابة عن السؤال الذى طرحناه من قبل • ومن المعروف أن بلغـــاريا العظمى قد تفككت بين القرنين السابع والثامن الميلاديين ، وانتقل جزء من البلغار الى الفولجا والدانوب ، أما الجزء الآخر فقد ظهر فى آسيا الصغرى والبلاد العربية ، وذاب بين شعوب أخرى ، ولم يكون اتحادا دوليا •

وبقى جزء من البلغار فى الأماكن التى كانوا يسكنونهـــا ، لكنهم تزحزحوا داخل شمال القوقاز تحت ضغوط قبائل وشعوب أخرى ومنها الكباردين • والتاريخ لا يعرف أمثلة حيث تركت الشعوب الكبرى بكافة جماعاتها الأماكن التى كانت تسكنها وتعمرها ، أو عاشت فيهـــا مئات السنين وتركت جذورها • ولكيلا يتحول حديثنا الى مجرد سرد الكلام نود أن نشير الى شهادة المؤلفين القدامى وأبحاث العلماء فى الماضى والحاضر • ونأخذ على سبيل المثال تاجر البندقية « باربارو » الذى عاش ما يقرب من خمسة عشر عاما (١٤٣٦ ــ ١٤٥٢م) • فى مدينة طانا على ضفاف نهر الدانوب ، وترك لنا معلومات قيمة عن بقايا البلغار فى هذه المناطق (*) • وهناك الرحالة والمؤرخون الذين زاروا هذه المناطق فى أزمنة مختلفة ، يتحدثون عن أصول البلكار والقراتشاى والبلغار القدامى (**) •

أما عالم الاثنوغرافيا الروسى « قاراولوف » الذى عاش قبل الثورة ، فيكتب فى بحثه أن البلكار والقراتشاى كانوا يعيشون وفق الأســاطير والحكايات الشعبية على سهوب شمال جبال القوقاز ، ثم انتقلوا الى المناطق الجبلية تحت ضغوط الكباردين ، وسكنوا حوض أنهـــار : التشيريك والتشيريم والباكسان ، « فهم بقايا الشعب البلغارى الذى كان يسكن حوض نهر الفولجا وهاجر عبر جنوب روسيا الى شبه جزيرة البلقان » • وبقى البلكار والقراتشاى هناك زمنا طويلا ، وعاشوا فى العزلة ، لذلك « احتفظوا بنقاء اللغة » (***) •

والبلكار والقراتشاى شعبان من أصل واحد يتحدثان نفس اللغة • وقد اختلفت النظريات وتنوعت حول أصولهما كما كان الأمر حول أصول التتار ، فهناك من يرى أن القراتشاى هم بقايا قبائل الهون ، وأن البلكار فرع من الشعب التشيكى وبذلك يضمهم الى شعوب بعيدة وغريبــة عن بعضها تماما • ويرى الآخرون أن هذين الشعبين بقايا من جيوش النوغاى

(*) Barbaro : Kontarini o Rossii. Leningrad, 1971, 595-96.

(**) Adigi Balkari, Karachayevtsi v izvestiyah avtorov., 8 19 v. v., Naltchik 1974, s. 635.

(***) Karaulov N. A. : Balkari na Kavkaze. V kn. Sbornik materialov dlya opisaniya mestnostey i plemen Kavkaza. V. 38. Tiflis 1908., s. 132-133.

أى جيوش « تيمور » • لكن علمـــاء التركيات يرون أن هذين الشعبين سلالة الخزار أو البولوفتسى • وأخيرا يرى بعض العلماء أنهم ســلالة مباشرة من البلغار •

ونجد « لايبانوف » الذى تناول فى بحثه كل هذه الآراء ، يشير الى أن البلكار والقراتشاى سلالة مباشرة من البلغار القدامى الذين بنوا دولة بلغاريا العظمى ، وبعد تفككها تكونت من بقايا البلغار فى هذه المناطق قبائل « كوبى ــ بلغار » و « دوتشى ــ بلغار » و « أوحوندور ــ بلكار » و « تشدار ــ بلكار » ومنها انحدرت جذور البلكار والقراتشاى الذين نراهم اليوم (*) • والمؤلف يعترف بتأثير الشعوب المجاورة على تكوين هذين الشعبين ، وهى ظاهرة عامة تقريبا عند كل الشعوب ، ويشير الى أن هذا التأثير لم يغير اللغة والأصول لكلا الشعبين •

وقد أثبت « كوكوف » و « شاهمورزايف » أن أســـماء المنطقــة الجغرافية تكونت من لغة البلكار ، ويتم تفسيرها بواسطة هذه اللغة (**) • وتعد لغة البلكار والقراتشاى بين جميع الشعوب الناطقة بالتركية أقرب الى لغــة القبجاق (البولوفتسى) وتتـــار اليوم والنوغاى والباشـــكير والقوميق (***) • أما الكلمات فى لغة البلكار والقراتشـــاى التى تعود بأصولها الى اللغة الألانية ، فقليلة للغاية (****) •

وفى الفترة ٢٢ ــ ٢٨ يونيه عام ١٩٥٩ م عقد مؤتمر علمى بهدف تحديد أصول تلك الشعوب ، وقد أسفر البحث فى هذا المؤتمر عن نتائج توصل اليها عدد من المتخصصين منها قول عالم اللغـــة « صاتتايف » (A. H. Sattayev) : « ان لغــة البلكار الحــديثة احتفظت بالعناصر البلغارية » •

وتقــول عالمة الآثار والانثربولوجيـــا « أليكسييفا » : « ان الوثائق تؤكد على أن البلكار يستمدون أصـــولهم من البلغـــار » • أما عالم الأنثربولوجيا « أليكسييف » (V. P. Alekseev) فيشير الى أن المظهر

(*) Laypanov : K istorii karachayevtsev i balkar. Cherkesk., 1957., s. 68.

(**) Kokov D. N., Shahmurzayev S. O : Balkarskiy toponimisticheskiy slovar., Nalchik., 1970., s. 4-5

(***) Gabjiyeva N. Z. : Problemi turkskoy arealnoy lingvistiki, Moskva., 1975.

(****) Hadjilayev II. I. : Ocherki karachayevsko — balkarskoy leksikologii., Cherkesk., 1970., s. 170.

الخارجي وتكوين جمجمة رأس البلكار قريبان من البلغار (*) ٠

وعلى الرغم من الخلاف حول عدد من القضايا فقد أكد المؤتمر على أن أصول البلكار والقراتشاي تنحدر من البلغار القدامى ٠ وقد تعرض هذان الشعبان لبعض التأثير من قبائل « آلان » وقبائل مجاورة أخرى في منطقة القوقاز ، لكن هذا التأثير لم يأت بتغيير ملحوظ في اللغة والثقافة والعادات وأساليب حياة البلكار والقراتشاي ٠

غير أن « أليكسييفا » التي اشتركت في هذا المؤتمر ببحث جديد يختلف رأيها تجاه هذه القضية ، اذ تقول : « ان القبائل التي كانت تسكن الجبال،هي نواة تم منها تكوين البلكار والقراتشاي » (**)٠اما «كروبنوف» (Y. I. Krupnov) صاحب مقدمة هذا البحث ، فيقول : « ان استنتاجات الباحثة ستفوز برضا القراء التي تبدو صحيحة من الوهلة الأولى ، وهي أن البلكار من شعوب القوقاز الأصلية » (***) ٠ لكن باي لغة كانت تتكلم هذه القبائل أو الشعوب الأصلية ؟ أكانت تتكلم التركية أم الآلانية أم لغات أخرى ؟ لم تقدم استنتاجات أليكسييفا أي اجابة على هذا السؤال ٠ ثم اذا كانت تلك القبائل الجبلية تتكلم اللغة التركية فالاشارة اليها واجب ، أما اذا كانت تلك القبائل تستخدم لغات أخرى فالأمر يحتاج الى تفسير : لماذا أصبح البلكار والقراتشاي يتكلمون التركية ؟ ويجدر بالاشارة هنا أن الشعوب مثل التشيشين والانجوش والكباردين والأديجي التي كانت أقرب من البلكار والقراتشاي الى حدود بلغاريا العظمى ، قد احتفظت بلغاتها وتقاليدها وعاداتها ٠ ونجد صاحب المقدمة مع تأييده لاستنتاجات الباحثة يعترف بأن هذه الاستنتاجات « تبدو صحيحة من الوهلة الأولى » ، ومع ذلك يضطر الى أن يشير بأنها غير مقنعة ٠

أما « أليكسييف » الذي اشترك أيضا في هذا المؤتمر ببحث عنوانه « أصول شعوب القوقاز » ، فيحاول أن يعيد النظر تجاه هذه القضية ويدعي أن البلكار والقراتشاي أقرب من الناحية الأنثربولوجية الى قبائل « آلان » ، لكنه حين أحس بأن الدليل الأنثربولوجي غير كاف لحل قضية أصول البلكار والقراتشاي ، اضطر الى الاعتراف باستنتاجات « بابايف » (Babayev) و « صاتتايف » (Sattayev) حول قرابة

(★) Materiali nauchnoy sessii po probleme proizhojdeniya balkarskogo i karachayevskogo narodov., Nalchik., 1960., s. 94, 103, 330.

(★★) Alekseeva V. P. : Drevneya i srednevekovaya istoriya Karachayevo Cherkessii., Moskva., 1970., s. 204.

(★★★) Ibid., s. 4.

لغة البلكار والقراتشاى والبلغار القدامى · ونجد هذه الاستنتاجات يتخذها دليلا منطقيا مؤيدو النظرية التى تنص على أن لغة البكار والقراتشاى هى لغة البلغار القدامى أى اللغة التركية · ويشير المؤلف فى نفس المكان الى أن « الانتماء اللغوى لتلك الشعوب لا تعنيه فى استنتاجاته كثيرا » (*) · لأنه ليس من علماء اللغة أو علماء التركيات ، لكنه مضطر الى أن يعترف بأن « النظرة التأملية الى الحقائق الموجودة تتيح لنا فرصة ايجاد الأدلة فى صالح هذه النظرية » (**) التى تقول ان هذين الشعبين يعودان بأصولهما الى البلغار القدامى · غير أن هذه المحايدة تجعلنا دون ارادة أشد حذرا وحرصا تجاه القضية · ونجد المؤلف يجافيه الصواب حين يدعى أن العالم المشهور فى اثنوجيز الشعوب « جيمادى » لا يوافق على الأصول البلغارية لهذين الشعبين ، والعكس صحيح ، لقد أيد « جيمادى » فى المؤتمر الأصول البلغارية للبلكار والقراتشاى (***) ، لكنه أشار فى خطابه الى ضرورة تأييد هذه النظرية بحقائق جديدة من علم اللغة والآثار لمنع تشويه أصول هذين الشعبين ·

وعقب هذا المؤتمر ظهرت الأبحاث الجديدة التى أيدت استنتاجات « جيمادى » حول الأصول البلغارية للبلكار والقراتشاى ، لكن «أليكسييف» تجاهل هذه الأبحاث لأسباب غير مفهومة · ومن بين هذه الأبحاث نجد بحث « كريستانوف » (****) · حيث اعتمدت نتائجه على الحقائق الأنثربولوجية التى تقول ان البلكار والقراتشاى قريبون للغاية من بلغار نهر الدانوب · وقد وفد البلغار القدامى الى القوقاز فى فترة تتراوح بين القرنين الأول والثالث الميلاديين · وكانوا ينزلون في البداية جنوب بلاد أذربيجان ، حيث اكتسب النهر الذى يتاخم الآن حدود ايران ، اسم «بلكار ــ تشاى» منذ ذلك الزمن البعيد · ومن ثم فان البلكار والقراتشاى هم بقايا البلغار القدامى ، وقد انتقل جزء منهم تحت قيادة « أسباروح » الى الدانوب حيث اشترك فى تكوين الشعب البلغارى الحديث ·

ونريد هنا أن نقدم نبذة عن حياة « كريستانوف » · فقد كان المؤلف يقيم فى العقد الثالث من القرن العشرين فى الجمهورية الكباردينية ــ البلكارية حيث درس أنثربولوجيا البلكار والقراتشاى ·

(*) Alekseev V. P. : Proizhojdeniye narodov Kavkaza., Moskva,. s. 200.

(**) Ibid., s. 400.

(***) Materiali nauchnoy sessii o probleme proishojdeniya Balkarskogo i Karachayevskogo narodov. Nalchik., 1960.

(****) Kristanov Z., : K voprosu etnogeza na Blkarskiya narodov. Istoricheskiy pereglyad. Sofiya., 1966., 3., s. 33-51.

واستمر العالم فى أبحاثه ، وكان فى فترة الحرب العالمية الأولى يدرس أنثربولوجيا الشعوب الناطقة بالتركية بآسيا الوسطى حيث سجل الشكل الأنثربولوجى لتلك الشعوب الذى يشير الى أن العنصر المغولى يشكل نسبة ٩٠٪ بين الكازاخ و١٠٪ بين الأوزبك ، لكنه لا يوجد بين البلكار والقراتشاى • وكانت أبحاثه تجرى على ألفى شخص من الرجال والنساء والأطفال وشيوخ البلكار والقراتشاى ، كما كان يستعان بهم عند المقارنة الأنثربولوجية بينهم وبين بلغار نهر الدانوب •

وهناك العالم « جابينشيف » الذى درس الآثار القديمة المكتوبة على الجلود فى متحف مدينة « نوفوتشيركاسك » بالجمورية القرادشاية ـ الشركسية ، وعلى الحجارة فى بلدة « ماياتس » و « حومارينسك » ، يؤكد مرة أخرى على أن أصول البلكار والقراتشاى تعود الى البلغارية ـ التركية ، لأن لغة تلك الآثار مفهومة لديهم اليوم دون أدنى صعوبة (*) • ويؤكد هذا العالم فى بحثه الآخر الذى يدور حول تاريخ تكوين شعوب شمال القوقاز ، على أنه « لا يوجد لدينا أى سبب أو مبرر لرفض العلاقة الوراثية بين اسمى « ملكار » و « بلكار » ، وكذلك الأمر بالنسبه الى الأسماء القديمة مثل « بولجار » ، آر » • و « بلك ، آر » و « بولكار » • أما اسم « قراتشايلى » فهو اسم أوغوزى مشتق من اسم « قرا ـ باليقارلى » أى البلغارى الأسمر » (**) • ويشير المؤلف فى نفس المكان الى ان لغة البلغار القدامى هى لغة البتشينيج ، وأن البلكار والقراتشاى نقلوا الينا أسماءهم الأثينية « آلان » و « بلغار » و « بتشينيج » (***) كما يشير المؤلف الى أن العالم « كوزنيتسوف » يشبه اللغة البلغارية القديمة بلغة الخزار (****) •

ونجد بعض الباحثين يذكرون تشابه لغة البلكار والقراتشاى بلغة الخزار والبتشينيج ، فيضمون لغتهم الى مجموعة اللغات القبجاقية (*****) ، وهو أمر جدير باهتمام العلماء لتفسير قرابة لغة البلكار والقراتشاى بلغة التتار (البولجار) والنوغاى والقوميق

(*) Habitchev M. A. : O drevnih runicheskih nadpisyah v alanskih katakombah. Sovetskaya turkologiya. 1970., 2., s. 64-68.

(**) Habitchev M. A. : Ob etnonimah., Sovyetskaya turkologiya., 1970, 2., s., 12.

(***) Ibid., s. 129.

(****) Kuznetsov V. A. : Nadpisi Humorinskogo gorodisha., Sovyetskaya arheologiya., 1963., 1., s. 303.

(*****) "Sovyetskaya turkologiya." 1970., 3., s. 145.

الباشكير والكازاخ ، مما يساهم كثيرا فى تحديد موضوعى ودقيق لهوية الشعوب الناطقة بالتركيه وتاريخها القومى ٠

لكن للأسف الشديد كثيرا ما نجد أنفسنا ضحايا لعبة الاشتقاقات وحيل المصطلحات مثل « ماكرو ــ اثنونيم » و « ميكرو ــ اثنونيــــم » ، مما يؤدى الى التخمين ثم التشويه والادعاءات المختلفه حول اصول بعض الشعوب وماضيها ، وعلى أساس ذلك كله يتم بناء النتائج ٠ ونجد هذا اللبس وخلط الامور يحصل بالدرجــــة الأولى اسـماء السعوب الناطقة بالتركية ٠ وكلنا نعرف من الأبحاث التاريخية أن سهوب روسيا الجنوبية ومنطقة شمال القوقاز وسواحل بحر أزوف وحوض نهر الدانوب ونهر الفولجا وأراضى جمهورية كازاخستان كان يسكنها الكيميار والاسقوت والسرمط والسفرومات وشعوب أخرى اختفت لسبب ما فى مكان ما ، أو « تبخرت فى الهواء » دون أن تترك أى أثر لها أو لسلالتها ٠ وفى المنطق نفسها تقريبا ظهرت قبائل الهون والخزار التى اختفت أيضا ٠ ونجـد فى نفس المناطق البتشينيج والقبجاق (البولوفنسى) الذين تبخروا أيضا واختفوا بلا سبب ٠ واذا كان عند المؤرخين بعض الآراء حول وقت ظهور قبائل الهون والخزار الا أنه من الصعب العثور فى أبحاثهم على الآراء حول وقت ظهور البتشينيج والبلغار والقبجاق (البولوفتسى) ٠ لقد تراكمت الأسئلة فى التاريخ ومنها : كيف عاشت مثل هذه الاتحادات الضخمة من القبائل المختلفة وهذا الجمع الوفير من الشعوب المختلفة فى نفس الأزمنة وفى نفس المناطق تقريبا ؟؟

وهنا يلح علينا سؤال آخر : أتعود كل هذه الاتحادات والتكتلات القبلية الضخمة الى أصل واحد أو جنس واحد ؟؟ ألم تكن قبيلة أو اتحاد القبائل قد غيرت أسماءها الى اسم القبيلة أو اتحاد القبائل المنتصرة ؟؟ ربما يكون هذا بداية لحل المسائل الصعبة والمعقدة ٠ ويبدو أن بعض القبائل والاتحادات القبلية ظهرت مبكرا وبعضها الآخر مؤخرا ، لكن هل كانت تلك القبائل تختلف عن بعضها فى اللغة والعــــادات والاعتقادات وأساليب الحياة ؟ واذا سلمنا باختلاف كبير بينها فهذا الأمر يتطلب منا أن نجد البقايا لتلك القبائل المتمثلة فى الشعوب الحديثة أو حتى فى عناصر هذه الشعوب ٠ ولدينا معلومات كثيرة حول القبائل الآرية التى كانت تسكن شمال المناطق الآسيوية ــ الأوربية قبل القبائل السابق ذكرها بآلاف السنين ، فبقايا لغتهم واعتقاداتهم وطقوسهم متمثلة فى الشعوب الفينية ــ الأوغورية والسـلافية (*) ٠ والمعروف أيضـا أن سلالة هذه

(*) Bongard-Levin G. M., Grantovskiy E. A. : O t Skifii do Indii. Zagadki istorii drevnih ariyev., Moskva., s. 124.

الشعوب الآرية هم الفـــرس وبعض الشعوب الهندية • أما الادعاء بأن الاتحادات الضـخمة مثـــل الكيميار والأســـقوث والسرمط قد امحت بحضاراتها تماما ولم تدخل فى تكوين الشعوب الأخرى فى تلك المناطق ، فهذا الادعاء غير منطقى • ولماذا لم تكن قبائل الهون والخزار والبتنسينيج والبلغار القدامى والقبجاق هى سلالة لتلك الاتحادات القبلية التى كانت تسكن هذه المناطق بعد اختفاء أسمائها (ليس اختفاء الشعوب نفسها) أو اختلاطها بشعوب من أصل واحد ؟ ومما يثير الضحك حقا أننا نعرف كثيرا عن معالم حضاراتها وأساليب حياتها ، لكننا لا نعرف شيئا عن لغتها وأصولها • ربما نحن نبحث فى مجال خطأ ونبنى آراءنا عبثا على أن هذه القبائل قد اختفت تماما من على وجه الأرض ؟ ألم يوجد فى لغة الشعوب الناطقة بالتركية كثير من ألفاظ تلك الاتحادات القبلية لا نستطيع ان نفرق بينها لأن لغاتها لم تختلف تماما • ربما نريد أن نفسر جهلنا بأنه لم يبق شيء من لغاتها ؟ واذا كان علماء اللغة قد وجدوا آثار الآريين القدامى حتى فى لغة الشعوب التى تسكن دولتنا والمناطق الشمالية فمن الصعب ان نسلم بأن الشعوب التى كانت تسكن المناطق الأوربية ـ الآسيوية منذ وقت قريب (اذا قورنت بالآريين) ، قد اختفت تماما ولم يبق شيء من لغتهـــا •

وهنـــاك سؤال آخر وهو : كيف نحدد مفهـــوم مصطلح « السكان الأصليون » ؟ ان بعض شعوب القوقاز تعود بأصولها الى الآلان ، أى انهم من بقايا الآرية • أما بعض شعوب القوقاز الناطقة بالتركية فتعد أيضا من السكان الأصليين ، لكن الخزار والهون والأسقوث شاع عنهم الحديث بأنهم وافدون •

وقد تكون الشعوب المختلفة قد أطلقت الأسماء المختلفة على تلك الاتحادات القبلية الضخمة التى أقامت هذه المنـــاطق فى نفس الفترات التاريخية تقريبا • وقد تكون أسماء القبائل المختلفة من أصل واحد قد قوبلت وسجلت فى التاريخ • كأسماء للشعوب المختلفة أو الاتحـــادات القبلية المختلفة • ألا يدعو التلاعب بمصطلحات مثل « ميكرو ـ اثنونيم » و « ماكرو ـ اثنونيم » الى السخرية والذى نجم عن عدم معرفتنا بهوية الشعوب ولغاتها وتواريخها ؟؟

ويقول معظم المؤرخين ان الأسقوث والهون والخزار وفدوا من آسيا أو من الشرق فنزلوا تقريبا نفس المناطق التى تمتد من نهر الارتيش حتى نهر الدانوب عبر الطرق الممتدة شمالى وجنوبى بحر القزوين • وليس هناك مجال للشك فى أن هذه القبائل أو الاتحادات القبلية كانت تتحدث لغة واحدة وتشترك فى بعض الصفات الأخـــرى • وقد تكون القبائل

المهزومة قد اندمجت وذابت فى القبائل المنتصرة بلا أدنى مقاومة أو صعوبة على أساس هذه القرابة ، ثم بدأت تتخذ اسم القبائل المنتصرة ، فأصبح هذا الاسم معروفا لدى جيرانها أى أصبح اسما حقيقيا لها • واذا كانت القبائل السابق ذكرها تتحدث لغات مختلفة وتختلف اختلافا كبيرا فى عناصرها فمن الصعب أن تغير تلك القبائل لغتها وثقافتها وأسلوبها فى الحياة وتقوم بتكوين مثل هذه الاتحادات الضخمة من القبائل الناطقة بالتركية أو بناء الاتحادات الدولية •

ويشير المؤرخون الى أن دولة بلغاريا العظمى ودولة الخزار ودولة الأتراك كانت تشغل تقريبا نفس المساحة ، وتتوارث مقاليد الحكم عقب الصراع ، واذا تكونت هذه الاتحادات من القبائل المختلفة فأين ذهبت هذه القبائل نفسها التى كانت تختفى مئات السنين ثم تظهر من مكان غير معروف وتشكل دولة جديدة ؟ والتاريخ يعرف حالات الانقراض لبعض الشعوب الصغيرة بسبب ابادتهـــا فى الحروب أو من الكوارث الطبيعية أو الأوبئة ، لكن لا يعرف التاريخ انقراض الاتحادات الضخمة ، بالاضافة الى أن هذه الحالات لم تحدث فى تاريخ الاتحادات القبلية التى نتحدث عنها وفى تاريخ الشعوب الناطقة بالتركية فى آسيا وأوربا • اذن مثل هذه الأسباب قد تؤدى الى انقراض الشعوب الصغيرة وليس الاتحادات الضخمة ، ولا يستطيع الشعب أن يختفى من وجوده الا فى الحالات التى أشرنا اليها • وقد تندمج وتذوب المجموعات البشرية الصغيرة فى القبائل أو الشعوب الأخرى ، لكن اذا كان هذا الاندماج يتم بين القبائل الغريبة فقد تنتصر احدى لغاتها ،أو بمعنى آخر تنتصر لغـــة القبائل المنتصرة أو المهزومة ، مع أن لغة المهزومين لا تختفى تماما ، فهى تترك آثارها فى لغة المنتصرين ، كما يكتسب الشعب المنتصر عناصر لا بأس بها من عادات الشعب المهزوم وثقافته وأســاليب حيـــاته • أما اذا تم الاندماج بين القبائل أو الشعوب التى تشترك فى لغة واحدة فليس من المعقول أن تظهر بعده لغة جديدة ، بل سيؤدى هذا الاندماج الى اثراء اللغة نفسها بواسطة اللهجات القبلية المختلفة • أما قبائل الهون والخزار والبلغـــار والقبجاق (البولوفتسى) فكانت ناطقة بالتركية ، ولم تظهر بينها الا لغة واحدة هى اللغة التركية ، أى أن لغة هذه الاتحادات كانت لغة تركية وليست لغة جديدة أو أخرى •

وحينما نتحدث عن تصنيف اللغات التركية فى مناطق شمال القوقاز وحـوض نهـر الفولجا وأورال وسيبيريا وكازاخســتان نجـد كل علماء التركيات يتفقون على أن لغة البلكار والقراتشاى والتتار (البولجار) والباشكير والنوغاى والقوميق تدخل فى مجموعة لغوية واحدة هى اللغة

القبجاقية • والى نفس المجموعة اللغوية تنتسب لغة تتار القرم والجاجاوز والكارايم وتتار روماتيا ، كما تنضم الى المجموعة القبجاقيه لغه الكاراخ والقراقلباق الذين يسكنون الآن أراضي تختلف الى حد ما عن تلك الاراضي التي كان يسكنها أجـــدادهم ، اذ كان أجدادهم يشغلون قرونا طويلة سهوب روسيا الجنوبيه وينضمون الى أسرة واحدة هي الأسرة القبجاقيه • ولنذكر « الكاوبوك السمر » الذين يطلق عليهم « قراقلباق » اليوم • كان أجـدادهم يسكنون منطقـــة روسيا الكييفية • وما زالت الشعوب القبجاقية السابق ذكـــرها تعيش حتى الآن في نفس المناطق التي كان يسكنهـــا الهون والخزار والبلغـــار والبتشينيج والتورك والقبجاق (البولوفتسي) والاسقوت والكيميار • ومن ثم فان الشعوب الحديثـــة مثل البلكار والقراتشــاي والتتار (البولجار) والباشـــكير والكزاخ والجاجاوز والقراقلباق والقوميق والنوغاي والكارايم وتتـــار روماتيـــا ولتوانيا ينتمون الى الأسرة القبجاقية في مجموعة اللغات التركية ، فهم سلالة تلك الاتحادات الدولية أو التكتـــلات القبلية الضخمة التي كانت تشغل منطقة تجتمع فيها قارتا أوربا وآسيا • وقد أطلقت عليها الأسماء المختلفة كالهون والبلغار والقبجاق (البولوفتسي) ، فكان هؤلاء يظهرون على مسرح التاريخ في أزمنة مختلفة •

أما اذا نظرنا الى تاريـــخ تلك الاتحـــادات القبلية من ناحية وحدة أصولهم واشتراكهم في نفس اللغة والعادات والتقاليد فلا داع أن نعبـــد أقاويل « العباقرة » حول أصول هذه الشعوب وماضيها • ونجد على سبيل المثال البولوفتسي يطلق عليهم اسمان : « القبجاق » و « القومان » ، لكن بعض العلماء ينظرون اليهم حتى الآن كأنهم شعبان مختلفـــان • ونرى ذلك بوضوح في بحث « جباين » الضخم (*) الذي يدور حول لغـــة القومان كلغة مختلفة عن باقي اللغـــات ، كما نجد العالم « بريتساك » (O. Pritsak) لم يكتب في بحثـــه عن لغـــة القبجاق فقط بل يميزها عن لغة مماليك القبجاق والقبجاق ــ الأرمن • وشيء يثير الدهشة حقـــا أن المؤلفين لا يميزان لغة الهون والبلغار عن باقي اللغات التركية القديمه في آسيا وأوربا مثل لغة القبجاق والتورك والكاوبوك والبيريندای الخ •

ويرى المؤرخون أن القبجاق هم نواة لاتحاد القبائل الذي ضم الى نفسه الأوز والبتشينيج والتورك والكلوبوك السمر والبيريندای والآخرين الذين احتفظوا بأصول اللغة القبجاقية ، ومنهم من احتفظ بعناصر اللغة الأغوزية وهي أيضا اللغة التركية (**) • ويجب أن نعترف هنا بأن اسم

(*) Gabain A. : Fundamento Turko., Unesko., Paris., 1958.

(**) Bolshaya sovyetskaya ensiklopediya., 2., t. 24., s. 168.

القبجاق (البولوفتسي) لم يكن اسما لشعب معين وانما كان اسما شاملا (ماكرو — اثونيم) لمجموعة كبيرة من الشعوب الناطقة بالتركية • وقد اشترك هؤلاء القبجاق (البولوفتسي) في تكوين شعوب أخرى ناطقة بالتركية لكنها بعيدة عن منطقة السهوب مثل الأذربيجان والتركمان والأوزبك والأتراك وآخرين • وفي فترة قبل الغزو المغولي حين كثرت حملات الروس ضد البولجار (تتار اليوم) قد هربت مجموعة الاسر البولجارية الى المجر واستقرت في السهوب المجرية التي كانت معروفة باسم « سهوب قومانيا العظمى » • وقد سجلت هجرة البولجار الجماعية مرة أخرى الى منطقة نهر الدانوب والتيسا في فترة تفكك الامبراطورية الذهبية ، أي حين كثرت هجمات الروس على أراضي البولجار • واذا كانت أصول البولجار تختلف عن القبجاق فمن الصعب أن نجيب على سؤال مثل : لماذا لم يهرب هؤلاء البولجار الا عند بلغار الدانوب والقومان في المجر والى فرنسا ومقدونيا وبلغاريا ؟ ونستطيع أن نفسر هذا بأن البولجار كانوا على وعى تام بوحدة أصولهم القومية ، فكانوا يعرفون الطرق التي تربط بين بلادهم ، اذ كان لهم صلات تستمر قرونا طويلة ولم تشكل المساحة التي تستغرق آلاف الكيلومترات ، عواقب لهم لتمحى وعيهم باصولهم المشتركة • واذا لم يكن الأمر كذلك فكان أسهل لهم أن يتجهوا الى شرق أورال أو الى المناطق الجنوبية أي مناطق أقرب لهم وأكثر معرفة •

نحن نعلم أن لغة الشعوب القبجاقية وعاداتها وأساليب حياتها لم تبق بلا تغيير على مر العصور من تاريخها المديد ، فكانت بلا شك تحت تأثير الجيران • لقد حدثت التغيرات في الأماكن التي كانت تسكنها ، كما حدث التطور الطبيعي لوسائل الانتاج ، لكن هذه التغيرات كانت قليلة الشأن في ميدان اللغة اذا قورنت بشعوب أخرى • والدليل على هذا أننا لانجد بين لغات المجموعة القبجاقية اختلافا ملحوظا في المفردات أو القواعد النحوية أو البنية اللغوية نفسها • أما بعض التغيير في المفردات اللغوية فيعود أساسا الى اقتباس هذه الشعوب من لغة الشعوب المجاورة ، أو الى الاشتقاقات الجديدة لكلمات تركية من جذور مختلفة ، كما نعود أسباب هذا التغيير الى مدى تعلق هذه الشعوب بتراثها القومي القديم وحفاظها عليه ، والى حجم استخدام المفردات المقتبسة من اللغة العربية والفارسية •

ونجد مثلا أن لغة الباشكير مفهومة بسهولة عند التتار (البولجار) ولغة التتار قريبة للغاية من لغة القراتشاي والبلكار والقوميق والنوغاي وباقي شعوب المجموعة القبجاقية • واذا حاولنا أن نفسر قرابة لغة التتار والباشكير بالمجاورة فكيف نستطيع أن نفسر قرابة لغة البلكار والقراتشاي

من لغة التتار الذين انفصلوا عنهم بآلاف الكيلومترات فى فترة تتجاوز ألف عام ؟ وجدير بالذكر أن لغة البلكار والقراتشاى كانت خلال الالف عام تنمو وتتطور بين لغات الشعوب المختلفة عنها تماما ، أما اللغة التتارية فكانت أيضا تنمو وتتطور وسط اللغات الفينية ـ الأوغورية واللغة الروسية،وكان من المفروض أن يؤدى هذا الى ظهور الاختلاف الكبير بينها٠ ان الاجابة عن هذا السؤال هى اجابة واحدة تتمثل فى وحدة الأصول التى تربط بين تتار اليوم (البولجار) والقراتشاى والبلكار والتى تعود الى البلغار القدامى ٠ أما لغة التشوفاش (هم جيران التتار) التى يضمها بعض علماء اللغة الى مجموعة اللغات التركية ، فتختلف اختلافا كبيرا عن كل اللغات التركية ، لكنها تحتوى على نسبة تتراوح بين ٢٠ ـ ٣٠٪ من كلمات تعود بأصولها الى اللغة التركية (*) ويبدو أنها مقتبسة منها ٠

ويشير « جاريبوف » (T.M. Garipov) فى بحثه المقارن بين لغات منطقتى أورال والفولجا الى أن اللغات التركية (ما عدا اللغة التشوفاشية) تتضمن على الوحدة السيمانتيكية (الدلالية) وأن ما يقرب من ثلثى فى المائة من مفردات اللغة التتارية والباشكيرية تشترك فيما بينها فى البنية الصرفية والنحوية وفى النطق مما يؤكد وحدة أصولها (**) ٠ ويؤكد العالم « فاسييف » على أن « لغة شعوب مثل التتار والباشكير والكازاخ والقوميق والنوغاى قريبة للغاية » (***) ، فهى تحتوى على ما يقرب من ٧٠ ـ ٨٥٪ من الكلمات المشتركة التى تعود بأصولها الى اللغة التركية ٠ ونجد كلا المؤلفين يتحدثان عن لغة شعوب المجموعة القبجاقية التى ما زالت تشغل حتى الآن تلك المناطق التى كان يشغلها الهون والخزار والبلغار والقبجاق (البولوفتسى) من قبل ٠ واذا قمنا بدراسة مقارنة بين لغة البلكار والقراتشاى ولغة التتار والباشكير نستطيع أن نتأكد بلا شك من القرابة بينها ٠

تسمية « التتار » وقوة ثباتها

سبق الحديث عن أصول تسمية « التتار » و « الترتر » وعن دور الصين وأوربا فى فرض هذه التسمية على الشعوب ، ثم أشرنا الى الاستخدام العنصرى لهذا المصطلح ونتائجه ، كما سبقت الاشارة الى أن الروس عقب

(*) Faseev F. S. : Opit sravnitelno — statesticheskogo issledovaniya leksiki tatarskogo yazika., Voprosi tatarskogo yazika i literaturi., Kn. 4., Kazan., 1969., s. 46.

(**) Sovyetskaya turkologiya., 1974., 2., s. 105.

(***) Faseev F. S. : op. cit., s. 46.

سيطرتهم على امارة قازان كانوا يعرفون سكانهـا لمدة طويلة باسم « بولجار » ، وكانوا يطلقون عليهم أيضا اسم « قازانيون » فيميزونهم بهذا عن « التتار » . لكن تلك الفترة وخاصة عند توتر العلاقات بين قازان وموسكو ، كان الأمراء الروس ورجال الكنيسة لا يتورعون عن سب أهل قازان باسم « التتار » معبرين بذلك عن كراهيتهم لهم . وعقب سقوط امارة قازان كان الأهالى يقاومون بشدة سياسة قياصرة الروس الاستعمارية . وكثيرا ما حملوا السلاح من أجل الحرية والاستقلال ، اذ لم يقبلوا سياسة التنصير التطوعى (أى الاختيارى) ، لأنهم كانوا شعبا متقدما يملك حضارة عميقة وادراكا كاملا بوحدة كيانهم الشعبى وعاداتهم واعتقاداتهم . وعقب القضاء على استقلالهم كانوا يقاومون بشدة وعلى مر العصور سياسة النظام القيصرى التى كانت ترمى الى تذويبهم فى بوتقة الروس . وقد أدت هذه المقاومة الى سخط وعدوان رجال السلطة المركزية والكنيسة الأرثوذكسية وشن حملات اضطهادية جديدة ضد سكان المنطقة المسلمين ، كما أدت هذه المقاومة الى الضغوط الاقتصادية ومطاردة ثقافة الشعب ولغته وعاداته وتقاليده . وكان نشـاط « التتار » فى حركة النضال من أجل الحرية تحت قيـادة الثوار الروس مثل « بولافين » و « رازين » و « بوجاتشوف » يثير قلقا شديدا للقياصرة وحاشيتهم . كما كانت مهارة تجار التتار فى ظروف غير متكافئة فى مزاحمة التجار الروس فى الأسواق الشرقية ، ووعيهم القوى بأصولهم ، وكفاحهم من أجل التقدم الحضارى والثقافى وذلك بتوفير المكتبة والمدرسة فى كل قرية على وجه التقريب ، ثم كفاحهم من أجل انشـاء الصحافة القومية واستمرار علاقاتهم الثقافية التقليدية مع شعوب الشرق الاسلامى ، أو باختصار شديد رفضهم للهيمنة الروسية ، وادراكهم العميق لأصولهم القومية كان يثير قلقا شديدا لدى السلطة المركزية والكنيسة والمبشرين .

وقد أدى ذلك كله الى موجة جديدة من الضغوط الاقتصادية والحملات الاضطهادية ، ثم تطبيق سياسة الحشو الايديولوجى على الشعب الروسى ضد « التتار » التى كانت تستهدف تقديم « التتار » فى صورة أعداء المسيحية وأراضى الروس « المقدسة » : وفى مثل هذه الظروف بدأت حملة التشهير بأهل قازان أمام الجماهير المسيحية بأنهم سلالة الغزاة المغول الذين أحرقوا ونهبوا الأراضى الروسية ، واضطهدوا الروس ما يقرب من مائتى عـام ، وهـذا بالاضافة الى اتهامهم فى حـركة بان ـ تركية (الجامعة التركية) وبان ـ اسلامية (الجامعة الاسلامية) . وهكذا تم استخراج ـ من أرشيف التاريخ ـ صورة «البعبع» أو الوحش الكريه التى بدأت تستخدم فى اطار قبيح لتخويف الناس والقاء الضباب على الوعى الجماهيرى . وما أن قامت هذه الحرب الايديولوجية الضروس حتى وجد مؤرخو الامبراطورية ومبشروها واجبا « وطنيا » أن يشتركوا بأى وسيلة

أو اسلوب فى مطاردة لغة « التتار » وثقافتهم ومؤسساتهم التعليمية وصحافتهم ، وتعطيل مصالحهم ، وسلب حقوقهم الانسانية · وكان هؤلاء « الوطنيون » يفسرون الوعى القومى المتزايد بأنه خطوة جديدة لاعداد الحملة « التتارية » على أراضى الروس ·

وكان مؤرخو النظام القيصرى بعلمائه ومبشريه وفلاسفته الذين تشربوا روح العنصرية والشوفينية الوطنية ، يرمون بكافة الوسائل الى اثارة الشعور بالاشمئزاز لدى الشعب الروسى تجاه « التتار » ، وذلك باحياء أشباه الجيوش التتارية فوق الأراضى الروسية سابقا ·

وعقب تفكك الامبراطورية الذهبية قامت فوق أطلال دولة بولجار الفولجا دولة جديدة ، وبدأ المؤرخون الروس الرسميون يرمون الى ربط ظهور هذه الدولة الجديدة بالامبراطورية الذهبية التى بقيت آثارها فى ذاكرة الشعب الروسى ، وبدأوا يشبهون سكانها بالمغول — التتار · ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء « التتار » كانوا مسلمين ، اذن فهم أعداء الديانة المسيحية ، لأن وفق تعاليم رجال الكنيسة أن كل الناس غير المسيحيين « كفرة » و « همجيون » و « أنجاس » · ومن هنا عظم شأن تسمية « التتار » بواسطة « الوطنيين » الذين كانوا فى خدمة الحكومة القيصرية ورجال الكنيسة · وقد اكتسبت هذه التسمية فى روسيا أيضا دلالة مهينة تقلل من شأن حامليها مثلما كان الأمر فى أوربا والصين · وكانت كل هذه الاجراءات ضد « التتار » تخدم فى رأيهم تنمية روح الوطنية لدى الشعب الروسى وتنمية الكراهية تجاه « التتار » ، كما كانت هذه الاجراءات تبريرا لسياسة قياصرة الروس العنصرية والاستعمارية فى منطقة الشرق ·

ونجد حروب روسيا من أجل السيطرة على شواطىء البحر الأسود فى العصور التالية ، ثم حروبها مع امارة القرم والدولة العثمانية التى انتهت بضم مناطق تسكنها الشعوب الناطقة بالتركية الى الامبراطورية الروسية ، قد أدت الى تسمية تلك الشعوب أيضا باسم « التتار » · وكان يجب فى ذلك الوقت ألا توصف جرائم السلطات الروسية فى تلك المناطق أمام الرأى العام بأنها سياسة استعمارية ، فقد وصفت بأنها اجراءات الانتقام أو الأخذ بالثأر التاريخى من ماضى « التتار » · وكلما أخذ السلاح الروسى يتغلغل الى مناطق الجنوب والشرق بدأت تسمية « التتار » تنتشر وتطلق على كثير من شعوب القوقاز وسيبيريا وآسيا الوسطى ، وكان من ضمنها شعوب غير ناطقة بالتركية ·

ثم ضموا الى التتار « البولوفتسى » الذين كانوا يسكنون سهوب روسيا الجنوبية وأراضى روسيا الكييفية قبل الغزو المغولى ، والذين شاركوا الروس فى الحروب ضد الغزاة المغول · ونجد فى الأبحاث

التاريخية الجديدة وفى الكتب الأدبية أن القبجاق كانوا يعانون أكثر من الروس فى موقع « كالكا » حيث كان يتم القضاء بالسهام على كل الجرحى المصابين أثناء المعارك (*) • أما بالنسبة لهذا التعميم الواسع لتسمية « التتار » واستخدامه الخاطىء فقد كان يتغذى بتقاليد سواد الشعب الروسى الذى رأى كل شيء شرقى اسلامى غير مفهوم لديه تتاريا • فنجد مثلا فى التراث الشعبى الروسى للقرنين السابع عشر والثامن عشر تنتشر بصفة مطلقة ظاهرة تسمية اللغة التركية باللغة التتارية(**) • ومن الحق أن نقول ان العالمة الروسية « بلاجوفا » قد أشارت فى بحثها الى أن كلمة « التتار » قد انتقلت من الروس الى أوروبا ، لأن العلماء والكتاب الأوربيين كانوا يستمدون معلوماتهم عن « التتار » من الروس أنفسهم منذ قديم الزمان • وكانت تقاليد الكتابة الأوربية تؤيد بلا شك الاستخدام الواسع لتسمية « التتار » الذى استمر قرونا طويلة فى روسيا ، باعتبارها تسمية شاملة لعدة شعوب (***) • وهنا بقى أن نضيف شيئا واحدا : هو أن التدوين الروسى فى مادة التاريخ منذ القرن السادس عشر حتى التاسع عشر هو المسئول الأول عن غرس اسم « التتار » وانتشاره بمعنى مشوه وكريه فى البلاد الأوربية •

ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين حين أخذت النهضة الاجتماعية والقومية عند التتار فى الظهور تحت تأثير نضال الشعب الروسى من أجل الحرية ، بدأت موجة تقوية التعبئة الايديولوجية للمسيحيين الروس وتوجيههم ضد « البوسورمان » أى المسلمين التى كانت ترمى الى اثارة العداوة بين الشعوب وعرقلة الحركة الثورية المتزايدة فى البلاد • ولم تضن السلطات الروسية عند اجراء ذلك من خزانة الدولة ، ولم تتوقف عن تشويه الحقائق •

ونجد « زنامينسكى » (P. Znamenskiy) رئيس الأكاديمية الدينية المسيحية بمدينة قازان وأحد مفكرى حركة التعبئة المسيحية ضد المسلمين ومنفذيها الذى لا نستطيع اعتباره متعاطفا لوضع التتار اطلاقا ، يقول فى كتابه : « هم (التتار) يتجنبون الروس وينفرون منهم » ، ثم يمضى الكاتب ويفسر فى نفس المكان أسباب تلك الظاهرة قائلا : « لا شك فى أن الذنب يعود الى الروس أنفسهم بسبب معاملتهم السيئة تجاه التتار ، ولم يستثن من ذلك حتى أولئك الذين اعتنقوا المسيحية • وكثيرا ما نسمع من أفواه الروس الألفاظ النابية والمخزية مثل « اللوح التتارى » و « الكلب » وما الى ذلك ، ولم نشهد هذه المعاملة الا تجاه

(*) Suleymenov O. : Az i ya., Alma-Ata, 1975, s. 1621165.

(**) Blagova G. F. : Varianti zaimstvovaniya., s. 105-106.

(***) Ibid., s. 103.

التتار ، أما الآخرون فلا يجيز الروس تجاههم الا دعابة أو نكتة طريفة » ؛ ويشرح الكاتب أسباب سوء معاملة الروس تجاه التتار قائلا : « ان أسباب هذه الكراهية نستطيع ايجادها في تاريخ العلاقات الروسية ــ التتارية ، والآن هى كثيرة أيضا . وقد يكون السبب الرئيسى هو صمود التتار أمام الروس ، لأن التتارى يفتخر بأصالته وديانته وثقافته وأخلاقياته . لقد أثار التتار بصمودهم أمام جهــود المبشرين ورجال الســلطة الروسية الاضطهاد الحقيقى ضد أنفسهم الذى ما زالت كوارثه تحكى وتنقل عبر الأجيال الى الآن . وكان الأسقف « لوكا قاناشيفيتش» (Luka Kanashevich) يأخذ أطفال التتار فى مدارســه الدينيــة قهرا ، ويأمر بهدم المســاجد وفك بقايا المنشآت البولجارية التى كان التتار يقدسونها . أما السلطات الروسية فكانت تمنح الامتيازات المختلفة لهؤلاء التتار الذين ارتدوا عن الاسلام ، وكانت تضطهد بكافة الوسائل المسلمين (أى التتار المسلمين) ، فتمنع بناء المساجد الجديدة وتقوم بهدم بعض المساجد القديمة واثقــال كواهل المسلمين الصامدين بالضرائب والاتاوات الاقطاعية أو طردهم الى مناطق أخرى وخاصة سيبيريا » (*) . وهذه السطور التى كتبها أحد مفكرى الحركة التبشيرية رغم سكوته وعدم افصاحه عن كثير من أشكال الاضطهاد وأساليبه الموجهة ضد الشعب التتارى ، تقدم لنــا تصــورا لطاردة التتار ومدى قسوتها لمجرد أنهم كانوا مسلمين يطلق عليهم اسم « التتار » . وهكذا نجد أن التدوين التاريخى لسياسة النظام القيصرى والكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا بما يحمل فى طياته من العنصرية قد « تحول الى الاهانة والاستهزاء القومى ضد التتار » (**) .

وكان « الوطنيون » أى خدم السلطات المركزية المخلصون بمدينة قازان يعلمون جيدا أن هؤلاء « التتار » ليس لديهم أى صــلة تربطهم بالغزاة المغول ، وهذا ما كتب عنه « زنامينسكى » نفسه : « ان « التتار » يسمون أنفسهم «بولجار» محددين بهذا صلتهم المباشرة بالبولجار » (***) .

أما رجال الحكومة المركزية الذين قاموا بتدوين تاريخ دولة البولجار منفصلة عن تاريخ امارة قازان وكأنهما دولتان لشعبين مختلفين ، فهم أصحاب النظرة المقصودة والنظرية الملفقة ، لأن اعترافهم بأن التتار هم سلالة مباشرة للبولجار (بلغار الفولجا) الذين بنوا حضارة يعرفها العالم ، كان سيؤدى الى صعوبة تسميتهم بألفاظ مثل « همجيون » و « أنجاس »

(*) Znamenskiy P. : Kazanskiye tatari., Kazan. 1910., s. 36.

(**) Alishev S. H. : Tatari Srednego Povoljya v. Pugachevskom vosstanii. Kazan., 1973., s. 49.

(***) Znamenskiy P.: op. cit., s. 4.

و « متخلفون » ، وتقديمهم بهذه الصورة أمام شعوب أخرى • واسترضاء الحكومة القيصرية تم تشكيل الرأى العام بواسطة فصل التتار عن البولجار كشعبين مختلفين ، وكان هذا الرأى ينص على أن التتار ليسوا سلالة البولجار وأن حضارة دولة بلغاريا على ضفاف نهر الفولجا لا تمت بصلة ما الى التتار ، وعلى هذا الأساس تمت محاولة اسناد هذه الحضارة الى شعب آخر اعتنق المسيحية •

وابتداء من القرن السادس عشر الميلادى وتحت تأثير الحملة الدعائية ضد التتار ظهر فى الأدب الروسى تيار يتمثل فى الأدب الشعبى الوطنى الموجه ضد التتار الذى ازدهر فى القرن الثامن عشر واستخدم بدهاء شديد كمصدر لادعاءات المؤرخين والأدباء الرسميين •

لقد تركت هذه الدعاية بصماتها على تشكيل الوعى الجماهيرى ، وما زالت آثارها واردة حتى الآن وتظهر فجأة فى الحياة اليومية أو فى مؤلفات بعض الكتاب وأبحاث بعض المؤرخين • وعلى الرغم من أن أمثلتها كثيرة فسنكتفى هنا بضرب مثل واحد ، فنأخذ على سبيل المثال بحث العالم الجامعى فى التاريخ « كارجالوف » الذى تولت نشره دار النشر « ناوكا » (Nauka) مرتين وباعداد هائلة تحت عنوان « على حدود السهوب » (١٩٧٣ م) ، حيث تبدأ سطوره الأولى كالآتى : « عدة قرون استمرت بطولة الشعب الروسى وشعوب دولتنا الأخرى فى نضالها ضد الغزاة المغول ــ التتار ثم الامارات التتارية العدوانية التى توارثت هذا المجد المشين • وكان سقوط مدينة قازان فى عام ١٥٥٢ م • بمثابة القضاء على عش الصعاليك فى حوض نهر الفولجا » (*) • وهذه السطور التى نود أن نؤكد عليها ، توضح لنا ثبات واستمرارية التقاليد القديمة لتلك الظنريات والآراء التى ليس لها أساس من الصحة والتى أشرنا الى أسبابها ومصادرها من قبل • ونستطيع أن نذكر مؤلفات أخرى لهذا المؤلف مثل « الغزو المغولى ــ التتارى على روسيا » (١٩٦٦) و « الشعب البطل » (١٩٧١) حيث يتم الخلط بين التتار (البولجار) والغزاة المغول • وهكذا نجد المؤلف يرى تتار اليوم سلالة مباشرة لهؤلاء الغزاة ويسمى وطن البولجار بعش الصعاليك ويتفوق بذلك على جميع مؤرخى الحكومة القيصرية قبل قيام الثورة • لقد كنا حريصين من قبل على أن نشير الى مثل هذه الآراء التى تؤدى الى تشويه الحقائق التاريخية ، وتفسد روح المحبة الحقيقية بين الشعوب وتغرس فى نفوس الناس عناصر الحقد والشوفينية الوطنية •

ونعود مرة أخرى الى مؤلفات المؤرخين فى روسيا لننظر الى الحقائق

(*) Kargalov V. : Na stepnoy grantise. 1973., s. 3.

التاريخية نظرة موضـــوعية ، مما تتطلبه منا الأمانة العلمية والواجب الانسانى • وعلى الرغم من أن هذه الرحلة فى تاريخ العلاقات بين الدول والشعوب غير ممتعة الا أنها تلح علينا كضرورة لاثبات الحقيقة •

وبصـــدد هـــذا نجد المؤرخين مثل «كارامزين » (Karamzin)— و « سولوفيوف » (Solovyev) و « كلوتشيفســـكى » (Kluchevshiy) يصفون في مؤلفاتهم أكثر من ثلاثين حملة للصـــعاليك الروس والأمراء الروس على أراضى البولجار ومدينة قازان • وأثناء كل هذه الغـــارات كانت تدمر المدن والقرى ، وتتعرض البلاد للسلب والنهب ويقتل ويؤسر كثير من أهاليها • وكان البولجار مضطرين أحيانا أن يردوا لهم بمثل هذه الزيارات على الأراضى الروسية ، لكنها لم تتجاوز ست أو سبع حملات وفق معلومات العالم الاكاديمى « جريكوف » (*) المتخصص فى دراسة تاريـــخ الدولة البولجارية وامارة قازان ، و « ســـميرنوف » (**) الذى ذكرناه من قبـــل ، و « شبيلينسكى » (***) ، و « شمارين » (****) وآخرين ، ووفق المخطوطات الروسية • ولم تكن هذه الحملات كما تؤكد المصادر التاريخية الا ردا على الغـــارات الروســـية الوحشية • ويقول « سميرنوف) فى كتابه : « ان أهالى مدينة نوفجورود (Novgorod) قاموا فى عام ١٣٦٠ م • بسلسلة من الحملات على أراضى البولجار ، فكان هـــذا بمثابة الخطوة الأولى للغزو الروسى المخطط على أراضى المناطق الشرقية • وكانت كل حملة يعقبهـــا غارة الصعاليك الروس • واعتاد سكان « نوفجورود » حملاتهم على أراضى البولجار منذ القرن الرابع عشر الميلادى • وحين رأى الأمراء الروس نجاح غارات الصعاليك الدائم التى كانت تنتهى بلا عقاب ، قرروا أن يشنوا حربا ضد الأمراء البولجار • وقد استمرت هذه الحرب لفترة امتدت بين القرنين العاشر والثانى عشر الميلاديين » (*****) • ويصف مؤرخ آخر طبيعة هذه الحملات قائلا : « ان حملات الأمراء الروس فى القرن الثالث عشر الميلادى اتسمت بطابع وحشى • وتميزت عن الحملات السابقة بوقاحة أكثر »، « كان البولجار يردون أحيـــانا على تلك الحملات الوحشـــية ، كحملتهم على مدينـــة « اوسنيوج » وتدميرها . الا أن الانصاف التاريخى يتطلب منا أن نعترف

(*) Grekov B. G. : Voljskiye bulgari v 9-10 vekah, Istoricheskiye zapiski., t 14., 1945., s. 3-37.

(**) Smirnov A. P. : Vojskiye bulgari., M., 1951.

(***) Shpilevskiy S. M. : Drevneyshiye goroda i drugiye bulgaro — tatarskiye pametniki v Kazanskoy gubernii., Kazan 1877.

(****) Ashmarin N. I. : Bolgari i chuvashi Kazan 1902.

(*****) Smirnov A. P. : op. cit., s. 63, 70.

بأن أراضى البولجار أتت للروس بفوائد أكثر من الأضرار » (*) ·

ونريد أن نشير هنا الى أن كلا الطرفين لم يكونا ملائكة أثناء حملاتهما ، لأن حديثنا مرتبط بفترة الحروب الاقطاعية وما يترتب عليها من السلوك الوحشى · لكن العلاقات بين الدول والشعوب لا تقوم على الحروب وحدها ، مما يؤكد علاقة البولجار وأهالى قازان بجيرانهم · و « يتراءى ذلك بوضوح عندما نتأمل فى المخطوطات الروسية رغم أنها تحمل طابعا واحدا · ولم تذكر هذه المخطوطات حملات أهالى قازان على أراضى التشوفاش والمارى والموردفا والأودموزت ، ولم تذكر حروبا بين شعوب أواسط حوض نهر الفولجا · أما حملات أهل قازان الاقطاعية على أراضى الروس فكانت لا تقام الا فى سنوات الحرب المعلنة بين الدولتين · ولم تذكر حالة الحروب الدائمة » (**) ·

وعند حديثنا عن تلك الحروب ينبغى ألا ننسى أنها كانت حروبا اقطاعية وليست حروبا بين الشعوب ، فهي ظاهرة عامة اعتدنا أن نراها فى تاريخ كل الشعوب للقرون الوسطى · ويجب أن ننظر اليها بهذا المفهوم ، وليس بأنها حروب ضد « عش الصعاليك » ·

والمعروف أن المخطوطات لم تسجل الا الفترات العصيبة فى التاريخ مثل الحروب أو التغيرات فى حياة بعض الشعوب ، فنجد فيها معلومات عن بطولات قائد معين أكثر من تفاصيل عن الحياة السلمية للدول على مر العصور · ومن هنا يجب أن نأخذ فى الحسبان دائما أن المؤرخين هم أولاد زمانهم ومكانهم أى هم خدم لحكوماتهم أو الطبقات الحاكمة وكل ما يرتبط بايديولوجياتها · ومن ثمة فانهم كانوا يبررون دائما سلوك جانب معين ويعلقون كل « الذنوب » على شماعة الأعداء ، أما سلبياتهم فيستترون عنها ، ويشيوهون عن قصد أسباب الخلافات ، ويعملون على تضخيم « شر » الغرباء · ونجد معلوماتنا حول علاقات روسيا بدولة البولجار فى حوض نهر الفولجا ثم بامارة قازان تعتمد تقريبا كلها على المخطوطات الروسية واستنتاجات مفسريها · وقد أدى ذلك الى تشويه الحقائق ، وهذا ما تؤكده قضيتنا المطروحة التى تدور حول تسمية « التتار » ·

لقد قهر المغول شعوبا كثيرة ومن بينها شعوب سلافية وتركية · وكان يتم تجنيد صبية الشعوب المقهورة ورجالها فى صفوف جيوش

(*) Firsov N N. : Chteniya po istorii Srednego i Nijnego Povoljya. Kazan., 1975., s. 173.

(**) Alisbev S. H : Prisoyedınєniye narodov Srednego Povo'jya k Russkomu gosudarstvu. V kn. Tatariya v proshlom i nastoyashem. Kazan., 1975., s. 173.

الغزاة . وعقب هزيمة روسيا تم تجنيد كثير من الروس فى جيوش المغول الذين اشتركوا بدورهم في اخضاع دول كثيرة وقهر شعوب أوربا وآسيا (*) . ويشير المؤرخ « جروم - جريمايلو » الذى اعتمد على المصادر الصينية والأوربية ، الى « جالية روسية عددها عشرة آلاف نسمة بجوار جبال مدينة بكين فى عام ١٣٣٠ م » (**) . ولم تستقر هذه الجالية داخل الامبراطورية الذهبية ، بل فى منطقة قريبة من المحيط الهادى ، تفصلها آلاف الكيلو مترات عن مراكز الروس . ومن ثم فليس من الصعب أن نتصور فى ضوء هذه الحقائق كلها أن عدد المحاربين من أصل روسى فى جيوش المغول كان كبيرا للغاية . ويشير المؤرخ الروسى فى كتابه قائلا : « ان الامبراطورية الذهبية لا تستطيع أن تسمى بالدولة التتارية الا نسبيا « لأن جيوشها كانت « تتكون من الشعوب المقهورة مثل الروس والشركس والقبجاق والدجار وآخرين » (***) لذلك نجد ادعاءات بعض المؤلفين بأن جيوش الامبراطورية الذهبية تكونت من القبجاق المقهورين ، ليست واقعية فهى أقرب الى شطحات الخيال . ويشير المؤرخ « جروم - جريمايلو » دون قصد الى أن القائد المغولى « باطى قد أصدر أكثر من مرة أوامره بقتل كل الأسرى القبجاق حتى أطفالهم » . بينما لم يقتل الأسرى من النساء والأطفال وأصحاب الحرف فى أيام حكم جنكيز خان . « ومن ثم فان السهوب القبجاقية خلت من سكانها عقب الابادة الجماعية ، وأخذت العناصر السلافية تفد اليها من الغرب لتسكنها ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى » (***) .

ويبدو أن البولجار جندو أيضا فى الجيوش المغولية ، لكن هذا لا يعطينا حق اعتبارهم من سلالة التتار وكذلك بالنسبة للروس . وقد بدأت ظاهرة الخلط بين المغول والتتار تنتهى بعد قيام الثورة البولشفية ، لكن فى فترة الحرب العالمية الثانية حين أصبحت التعبئة الايديولوجية من أهم قضايا الدولة ، قام عدد كبير من المؤلفين بتمجيد بطولات الشعب الروسى وكفاحه ضد الغزاة الأجانب فى الأيام الماضية . ومن هنا حدث شيء غريب اذ بدأ الخلط بين المغول والتتار يشتد من جديد . وفى تلك الفترة العصيبة أى فى سنوات المحن الضارية لم يكن التدخل فى مثل هذه القضية أمرا مناسبا . وبدأ المؤلفون فى تصويرهم لكفاح الشعب

(*) Zəkirov S. : Diplomaticheskiye otnosheniya Zolotoy Ordi i Yegipta. Moskva., 1966., s. 15.
Gumilev L : Poiski vimishlennogo tsarstva., M., 1970., s. 219.

(**) Grumm-Grimaylo G. Y. : Zapadnaya Mongoliya i Uryanhayskiy kray. t. 2., L., 1826., s. 518.

(***) Nosov A. N. : Mongoli i Rus., M-L., 1940., s. 53.

(****) Grumm-Grimaylo G. Y. : Zapadnaya Mongoliya., s. 465.

الروسى يستخدمون على نطاق واسع المصطلحات مثل « النير التتارى » ، و « الغزاة التتار » ، وهذا بمثابة المرادف للفظ « المغولى » • لكن بعد انتهاء الحرب تم الاعتراف بأن هذه الظاهرة خاطئة • وعقد المؤتمر العلمى الذى تناول قضية أصول تتار اليوم والذى ذكرناه من قبل • غير أن نتائج هذا المؤتمر بقيت خارج اهتمام المؤرخين ، ولم تصل الى الجماهير الواسعة من القراء ، لذلك بدأت التقاليد القديمة فى خلط التتار مع المغول تزدهر مرة أخرى منذ خمسينيات هذا القرن •

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية كثيرا ما سمع مؤلف هذا الكتاب من أفواه المرشدين أمام الوفود السياحية فى القرم ومولدوفيا وآسيا الوسطى واوكرانيا والقوقاز وحوض نهر الفولجا عن ماضى هذه المناطق ، وكيف تعرض أهاليها لوحشية الغزو « التتارى » ، وكان هؤلاء المرشدون يتناسون اضـــافة لفظ « المغولى » • ونفس الشىء نجده فى الكتيبات السياحية سواء أكانت باللغة الروسية أم لغات أخرى ونجد فى المكتبات والمعـــارض كروتا للرســـامين الكبار بالمنـــاظر الرائعة ومن بينها منظر « التتار » الغزاة للرسام « أندريى روبليوف » (Andrey Rublyov) مع السطور المناسبة لها دون ذكر لفظ « المغول » فيها • كما نجدهم يقدمون فى بعض برامج الاذاعة والتليفزيون وبعض الأفلام السينمائية تتار اليوم وكأنهم المغول • أما الأطفـــال فيتلقون بدورهم فى المدارس معلومات خاطئة عن التتار أى أنهم الغزاة المغول مما أدى الى اشتباكات عنيفة بين طلبة المدارس الروسية ـ التتارية ، والمدرسون يعلمون هذا جيدا • ولم يذكر فى كتب التاريخ المدرسية وحتى الجامعية على الهوامش أن تتار اليوم ليست لديهم أى علاقة بهؤلاء التتار الذين تتحدث عنهم تلك الكتب •

وهكذا نرى أن أى خلط بين التتار والمغول واستخدام كلا المصطلحين بلا ضابط أو رابط سيؤدى الى التصـــور الخاطىء بأن تتار اليوم هم سلالة المغول ، لأنه لا يوجد فى أيامنا هذه سوى شعب واحد يحمل اسم التتار ويعرفه القارىء • وليس لدى القارىء ما يسعه من الوقت للتفكير أو الاهتمام بأن تتار اليوم يختلفون عن التتار الغزاة • ثم هناك ظلال أخرى لهذا الخلط أو الاستخدام الخاطىء للمصطلحات ، اذ نجد بعض الشباب التتار يفخرون من قبيل رد الفعل بسلوك المغول وبمقارنة شعبه بهؤلاء الغزاة •

وكانت العلاقات بين الروس وبولجار مدينة قازان قائمة على حسن المجاورة والصداقة والتعاون منذ زمن بعيد ، مما لم يستطع أن يمحى ذكرها حتى وقوع بعض الخلافات والمناوشات • ونجد المخطوطات الروسية تصف غالبا العلاقات السلمية بين الشعبين • ويشير العالم الاكاديمى

« جريكوف » فى كتابه الى هذا قائلا : « ان المخطوطات الروسية تحمل طابعا واحدا عند حديثها عن دولة البولجار ، ولم تذكر تقريبا وقوع الاشتباكات الحربية بينها وبين روسيا مع أن هنــاك بعض الاستثناءات الشيقة » (*) . أما فى سنوات الجدب والمجاعة فى روسيا فكان البولجار يسارعون الى مساعدة جيرانهم بارسال عشرات السفن المشحونة بالخبز البولجارى الى الشــعب الروسى الجوعان ، وكان المعمــاريون البولجار يشيدون فى المدن الروسية كنائس ومنشآت رائعة . وكانت العلاقات التجارية والثقافية والاقتصـــادية بين الشعبين قريبة للغاية . وكانت جاليات روسية تقيم فى الدولة البولجارية ومدينة قازان وتحــارب مع البولجار جنبا الى جنب ضد الغزاة الأجانب . وكان كلا الطرفين يستفيدان من بعضهما ، ويقتبسان من بعضهما العادات والمناسك والمفردات اللغوية ، لذلك نجد الشاعر التتارى عبد الله طوقاى يقول :

« نحن شعب عريق وذو شهرة على الأراضى الروسية
نحن أصفياء كالمرآة فى التاريخ

نعايش الشعب الروسى منذ قدم تربطنا الصداقة
نتعلم من بعض ونتبادل عادات وألفاظا وخبرات (**) .

ويصف العالم الاكاديمى « جريكوف » العلاقات القائمة على الصداقة وحسن التجاور بين البولجار وأهل مدينــة قازان وبين الروس قائلا : « لم تكن الخيوط الحربية بل التجارية والثقافية تربط بين الجانبين » (***) . وهناك « كونونوف » عالم التركيات المشــهور وهو عالم موسوعى فى التاريخ والمتخصص فى ثقافة ولغة الشعوب الناطقة بالتركية ، يشير فى كتابه قائلا : « ان العلاقات المباشرة التى كانت تربط القبائل السلافية والروس مع مختلف قبائل منطقة الشرق واتحاداتها وفى قائمتها القبائل الناطقة بالتركية التى كانت تسكن سهوب روسيا الجنوبية وحوض نهر الفولجا وشمال جبال القوقاز وشبه جزيرة القرم ، قد تركت آثارها فى كيان ولغة وأساليب حياة أجدادنا . أما الرأى السائد والمنتشر عن العداوة المستمرة بين الروس والشعوب الناطقة بالتركية فهو غير صائب وليس له أدنى صلة بالحقائق ووقائع الأمور » (****) .

وكان الجهل والآراء المسبقة التى أصبحت فيما بعد بمثابة مصادر

(★) Grekov E. D. : Voljskiye bulgari., s. 14.

(★★) Tukay G. : Eserler., t. 3., Kazan. 1955., s. 243.

(★★★) Grekov B.D. : Voljskiye bulgari., s. 16.

(★★★★) flononov A. N. : Iz istorii izucheniya turkiskih yazikov v Rossii. V kn. Bibliograficheskiy s'ovar otechestvennih turkologov. Dooktyabrskiy period., Moskva 1974., s. 9.

« حقيقية » ، يلعبان دورا لا بأس به في التشيار ظاهرة الخلط الخاطىء بين التتار والغزاة المغول • ومن ثمة فان العالم الروسى الشهير في علم التركيات « جريجوريف » يشير — وهو على صواب — الى أن المصادر الشرقية ومؤلفات المؤرخين الشرقيين لم تكن معروفة فى روسيا أو أوربا ، واذا عرفت فمعرفة سطحية ، لأن الأوربيين كانوا يعدون أبحاثهم ومؤلفاتهم خرافة • وكانت ترجمة الأوربيين للمصادر الشرقية مليئة بالأخطاء وهذا بسبب عدم معرفتهم لحضارة شعوب الشرق ولغاتها • أما اذا تناقضت المؤلفات الشرقية مع مؤلفات الاغريق القدامى فلم تؤخذ أو تؤمن بها ، لأن المصادر الاغريقية كانت فى ذلك الوقت موضع الاعجاب وفى مرتبة التقديس • وكانت المراكز الأوربية ترى كل شىء غير مذكور فى المؤلفات الأغريقية ليس جديرا بالثقة أو الاهتمام » (*) •

ونريد أن نضرب مثلا يبين الى أي مدى أصبح الانتساب الى اسم « التتار » اهانة لأى شعب ، ذلك الاسم الذى وصف فى التاريخ بألوان صارخة وخطوط عريضة • هناك العالم « زهيدوف » وهو الأستاذ الجامعى فى العلوم التاريخية بجمهورية أوزبكستان ، يعلن فى كتابه بصراحة ووضوح : « يجب علينا أن نعارض بشدة كل محاولة انتساب الشعب الأوزبكى الى القومية التركية » (**) • فهو يعنى « انتساب » الأوزبك الى الشعوب التى انحدرت من القبائل التركية • والمعروف أن بقايا جيوش جنكيز خان قد استقرت فى آسيا الوسطى والهند بعد انهيار الامبراطورية الذهبية ، وفرضت سيطرتها على شعوب هذه المناطق المقهورة • وكانت نسبة تلك الشعوب الى اسم « التتار » فى التدوين التاريخى ظلما صارخا مثلما يحدث لتتار اليوم • لذلك يتجه العالم الأوزبكى المذكور تحت تأثير الانفعالات الى التطرف حين يطالب بعدم انتساب الأوزبك الى الشعوب التركية •

ونريد أن نضرب مثلا آخر ، لكنه هذه المرة من ماض بعيد • كان القسيس « جريجوريف » وهو من البولجار الذين أطلق عليهم اسم « التتار » ، قد ارتد عن الإسلام واعتنق المسيحية ، فهو يكتب السطور التالية : « أشك أن السلطات تعلم بأنه لا يوجد عند التتارى الذى اعتنق المسيحية ، اهانة أكبر من تسميته باسم « التتارى » • وقد مضى ٣٥٠ عاما منذ اعتناق سكان قازان الأوائل الديانة المسيحية الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « كراشين » (أى النصرانيون) ، لكن السلطات المحلية ما زالت تسميهم بهذا الاسم البغيض بل تأمر بهذا • وكثيرا ما تعرض هؤلاء

(*) Grigoryev V. V. : Rossiya i Aziya SP. b. 1876., s. 3, 5.

(**) Zahidov V U. : O vesheniye istorii i kulturi narodov Uzbekistana. Tashkent., 1951., s. 39.

« التتار » الذين اعتنقوا المسيحية ، للظلم بسبب هذه الظاهرة » (*) .
وكل هذه الأمثلة تشبه صرخة اليائس .

ونجد تسمية « التتار » الخاطئة واستخدامها الباطل يقفان حجر عثرة أمام العرض العلمي والموضوعي لتاريخ كثير من الشعوب الناطقة بالتركية ، ويشكلان صعوبة في مجالات أخرى . وعلى سبيل المثال نأخذ بحث «ميخايلوف» تحت عنوان (اهتمام ليرمونتوف «باللغة التتارية») الذي نشر في مجلة « منتخب التركيات » (**) . حيث يضع المؤلف لفظ « التتاري » بين علامتي التنصيص ، وهذا ليس اعتباطا منه ، فهو مضطر أن يشرح في بحثه أن « اللغة التتارية » ليست لغة التتار ـ المغول ، لكنها تسمية عامة للغات شعوب القوقاز والأذربيجان والنوغاي والقوميق وآخرين . يقول الباحث : « هناك خلاف في قضية اللغة التتارية منذ أيام بوشكين وليرمونتوف وحتى تولستوي حين قام بتاليف كتـــابه «كازاكي» . وقد كبر الخلاف بشيء آخر وهو أن اسم «التتار» لم يطلق في ذلك الوقت على ممثلي الشعوب الناطقة بالتركية فحسب بل أطلق على كل المسلمين » (***) .

والمعروف أن الطبيعة لا تطيق الفراغ . واذا كان التتار ليسوا من سلالة البولجار مما حاول علماء الحكومة الروسية اثباته قبل قيام الثورة البولشيفية ، فكان يترتب عليه أن تراث البولجار الحضـــاري ولغتهم وكتاباتهم وآثارهم ليست تراثا للشعب التتاري . ومن هنا ظهر بعض « المفكرين » الذين استغلوا هذه النظرية الكاذبة عن أصول تتار اليوم وأعلنوا فجأة أن لغة البولجار هي لغة حية للشعب التشوفاشي الحديث ، وأن حضارة البولجار تراث له . لكن هذه النظرية المقصودة والكاذبة قد رفضت تماما من قبل علماء الانثربولوجيا وعلماء اللغة والآثار . وقريبا ظهر في السوق كتاب جديد حيث تم تجميع نتائج أبحاثهم . وصاحب هذا الكتاب عالم التاريخ والآثار المشهور « كراسنوف » الذي كرس سنين طويلة من حياته وعمله لدراســة تاريخ دولة البولجار في حوض نهر الفولجا . وقد استنتج العالم معتمدا على تحليل الوثائق في علم الآثار والاثنوغرافيا والانثربولوجيا ولغة الآثار المكتوبة التي وصلت الينا من دولة البولجار في حـوض نهر الفولجا وامارة قازان ، أن « الآثار المكتوبـة والحقائق الانثربولوجية أو الاثنوغرافية أو اللغوية لا تستطيع أن توفر

(*) Grigoryev D. G. : Zoviţe nas kreshensami. Izvestiya po Kazanskoy yeparhii. 1906. — 14/15., s. 450.

(**) Mihaylov M. S. : K voprosu o zanyatiyah M. Y. Lermontova tatarskim yazkom. Turkologicheskiy sbornik, M.L. 1951., s. 127-136

(***) Ibid., s. 130.

لنا بالتفسير صورة واضحة عن تكوين الشعب التشوفاشي » ، « ولا توجد هنــاك أدلة تستطيع أن تثبت توارث ثقــافة البولجار مع التشوفاش ــ الأناترى قبل الغزو المغولى » (*) • والجدير بالذكر هنا أن « أناترى » وهم تشوفاش الجنوب ، كانوا جيرانا لبولجار الفولجا ويتصــلون بهم باستمرار • أما « فريال » وهم تشوفاش الشمال الذين لم يتصــلوا بالبولجار اتصالا مباشرا ، فلم يكن لديهم أى آثار تبين تأثير حضـــارة البولجار عليهم • ونجد هؤلاء الذين يدعون أن التشوفاش سلالة البولجار ، يستندون فى ادعاءاتهم على وجود بعض الألفـــاظ البولجارية فى لغــة التشوفاش ، وكأن هذه الألفــاظ لم تحفظ الا فى لغتهم ، أو كأن لغة التشوفاش منفردة بها • وهذه الادعاءات تخالف طبيعة الأمور • ونود هنا أن نشير أيضا الى النتائج التى توصل اليها العالم الاكاديمى « بارتولد » الذى يقول : « ان الباحث « أشمارين » يذكر بعض الألفاظ التى لا شك أنها مأخوذة من الشعوب الاسلامية لكنها اكتسبت عند التشوفاش معانى أخرى • وكانت صلوات التشــوفاش الوثنية تبدأ بلفظ « بسميلى » (من اللغة العربية » بسم الله ») ، أما الاله الذى يأمر الذئاب فاطلق عليه اسم « بيخمبار » (من اللغة الفارسية « بيغمبر » أى الرسول) ، وكانت روح الميت عندهم تســمى « كيرامت » (من اللفــظ العــربى « كرامة ») • واذا كان التشوفاش بالفعل يستمدون أصولهم من البولجار الذين كانوا سكان المدن وورثوا هذه المصطلحات من أجدادهم ، لكان هذا دليلا على ظاهرة غريبة وغير موجودة فى العالم الاسلامى وهى العودة الى الوثنية والوحشية » (**) •

عرض موجز لحياة التتار ــ البولجار

لقد سبق عرض نتائج بعض الأبحاث التى أشــارت الى المستوى الراقى لحضارة البولجار • ونود أن نضيف اليها بعض حقائق أخرى • لقد عرف البولجار صب حديد الزهر قبل الشعوب الأوربية ، وكانوا يصنعونه من أحسن الأنواع (***) • وهناك « آثار كثيرة بقيت لتشهد لنا بتقنية راقية ومميزة للتعدين البولجارى » (****) • وتشير التقارير العلمية

(★) Krasnov U.A. : Problemi proishojdeniya tchuvashskogo naroda v svete arheologicheskih dannih. — Sovetskaya arheologiya., 1974., 3., s. 117-118.

(★★) Bartold V. V. : Sochineniya., t. 5., M. 1968., s. 520.

(★★★) Arzehovskiy A. V. : Osnovi arheologii. M., 1955., s. 234.

(★★★★) Smirnov A.P. : Voljskiye bulgari. M., 1951., s. 82.

الى وجود أسلحة نارية عند البولغار فى عام ١٣٧٧ م (*) • ونجد فى القرن التاسع الميلادى أن المدارس والمكتبات لم تكن تعمل فى المدن فحسب بل فى كثير من القرى البولجارية (**) فمنذ منتصف القرن الرابع عشر حتى مشارف القرن السادس عشر الميلادى أى منذ فترة تمتد بين حكم « دميترى دونسكوى » (Dm'tr'y Donskoy) حتى « ايفان فاسيليفيتش » (Ivan Vasilyevich) كان سك العملة والمسكوكات للأمراء الروس يتم فى المدن البولجارية (***) • وهناك حقائق وأدلة أخرى تشهد لنا بالمستوى الراقى للحضارة البولجارية • أما عن اسلوب حياة التتار أى البولجار فى الماضى البعيد فنستعين بشهادة ممثلى القومية الروسية •

وكما سبقت اليه اشارة من قبل كانت دور الطباعة الروسية الرسمية تقدم « التتار » فى أسوأ صور ، ولم تضن من أجل ذلك بالألوان ، فكانت ترسمهم فى هيئة شخص « همجى » ، « عفن » و « قذر » • ومن ثم فقد أدت هذه الدعاية الى غرس التصور السيىء عن حضارة وأسلوب حياة التتار فى وعى الجماهير الروس ، وخاصة لدى ذلك الجزء الذى لم يعرف التتار مباشرة • كما تركت هذه الدعاية آثارها أيضا فى الأدب الشعبى الروسى • والمعروف أن أزمة العلاقات بين الشعوب تظهر عندما يبدأ « أبطال الحكومة » فى التباهى بأمجاد شعبهم واسلوب حياتهم واعتقاداتهم وملابسهم وما الى ذلك ، وتقديمها فى صور مثالية نموذجية • ومن هنا يبدأ هذا السلوك يتحكم فى آرائهم تجاه شعوب أخرى ، فاذا وجدوا فيها ما يخالف أذواقهم نسبوه الى مظاهر التخلف والهمجية ، وتناولوه بالسخرية والازدراء ، وهكذا تظهر الشوفينية والتفرقة العنصرية •

أما الروس الذين عرفوا التتار مباشرة وعرفوا اسلوب حياتهم فتختلف نظرتهم الى حضارة وثقافة التتار اختلافا واضحا • وعلى سبيل المثال نجد « قوبلوف » (Y. Koblov) وهو أكثر المبشرين تعصبا ، الذى كان يكره التتار ، يضطر الى الاعتراف بأنه « لا بد من وجود مدرسة فى كل مسجد عند التتار » وأن « تعليمهم متطور للغاية ، فلا يوجد بينهم الأميون على وجه التقريب، أما انشاء المدارس فيتم بالتبرعات العامة » (****) •

(★) Mavrodin V. : Vestnik Leningradskogo universiteta. 1946., — 3.

(★★) Yakubovskiy A. U. : K voprosu ob istiricheskoy topografii Idila i Bolgar., 9-10 v. v., Sovetskaya arheologiya., t, 10., M., 1948., s. 270.

(★★★) Uspenskiy A. : Ocherki po istorii tatarskogo iskusstva., vestnik nauchnogo obshestva tatarovedelniya., 1924., — 7., s. 51.

(★★★★) Koblov Y. D. : O tatarizatsii inovertsev Privolgskogo kraya., Kazan 1910, s. 3.

وواضح أن هذا المبشر ليس راضيا عن تعليم التتار ، وهذا يقلقه كثيرا لأنه يرى أن المستوى التعليمى العـالى عند التتـار سيؤدى الى « افســاد » الشعــوب المجاورة مثل التشوفاش والمارى والاودمورت والموردفين أى جذبها الى الدين الاسلامى ، وذلك عن طريق معاملة التتار الطيبـة لتلك الشعوب واحترامهم لعـاداتها وتقـاليدها » (*) • وليس صحيحا أن تقرير «قوباوف» كان مجرد تبرير لفشل المبشرين فى فرض الديانة المسيحية على شعوب المنطقة ، لأن هناك تقارير كثيرة لعلماء الروس فى أزمنة مختلفة (مثل « جيورجى » (Georgiy) و « فوكس » (K. Fuks) و « زنامينسـكى » (P. Znamenskiy) وآخرين تعبر عن تقـديرهم للتعليم التتارى وتؤكد بذلك صحة تقرير «قوبلوف » •

ونجد « بينيجين » (M. Pinegin) وهو رئيس لجنة مؤقتة لشئون دار الطباع بمدينة قازان الذى عرف جيدا اسلوب حياة التتار وحضارتهم ، يقدم تقريرا سريا لمحافظ قازان بأن « الشعب التتارى قادر بلا شك على استيعاب أفكار جديدة تصل اليه عن طريق المساجد والمدارس ، وخاصة الصحافة التتارية التى تتناولها أيدى سواد الشعب ، حيث ثمانون فى المائة منه متعلمون » (**) • والجـدير بالذكر أن تعليم التتـار بلغتهم القوميـــة لم يعترف به فى الاحصـاءات الرسـمية قبـل قيـــام الثورة البولشفية ، لأن القراءة والكتابة باللغـة الروسية كانتا مقياسا وحيدا لتحديد مستوى التتار التعليمى •

وكان الطبيب « سباسكى » (A. Spasskiy) الذى قام بدراسة تاريخية ـ اثنوغرافية للشعب التتارى ، يقول فى كتابه : « ان التتار يحبون استضـافة الناس ، وكرم الضيافة من أحسن سماتهم » • أما « نسبة المتعلمين عنـدهم فأعلى من الروس » • و « يتميز التتار بمساكنهم النظيفة » • و « اعتاد التتار طلاء مدافئهم عدة مرات فى السنة ، وحتى فى بيوتهم القديمة تقوم نساؤهم بواجباتهن المنزلية فى نظافة ونظام » • و « اذا أرادت التتارية حلب البقر لبست مريلة وغسلت الضروع بالماء الدافىء وغطت اللبن بفوطة نظيفة » (***) • وهذه السطور مأخوذة من بحث العالم الذى اتصل بالتتار اتصالا مباشرا ودرس حياتهم فى القرى التتارية • ويعترف المؤلف فى النهاية بأن اسلوب حياة التتار ومستواهم الحضارى « ينبغى أن يحتلا مرتبة أولى بين كافة الغرباء » (****) •

(*) Karimullin A. G. : U istokov tatarskoy knigi., Kazan 1971., s. 34-36.

(**) Tsentralniy gos. arhiv TA. SSR., f 420., d 258., 15.

(***) Spasskiy A.: Kazanskiye tatari., Kazan., 1961., s. 16.

(****) Ibid., s. 8, 28.

وهناك المؤرخ وعالم الاثنوغرافيا « فوكس » الذى عاش فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى وعمل أستاذا بجامعة قازان ، قد درس أيضا اسلوب حيـاة التتار وحضـارتهم ، ويقول فى كتابه : « انهم يتميزون بالطموح والكبرياء واحترامهم للضيف والمهارة فى النشاط التجارى وحبهم للفضة والنظافة • انهم متباهون ومغامرون ، يسالمون بعضهم ، يحبون العمل ويميلون الى الانطواء • فلكل شعب سلبياته وايجابياته ، وكذلك التتار ، ذلك الشعب الذى استطاع بعد اخضاعه وتشتيته بين الروس أكثر من قرنين من الزمن ، أن يحافظ بصورة عجيبة على تقاليده وعاداته وكأنه عاش هذه السنين مستقلا » (*) •

وهذا هو وصف الروس للتتار الذين عرفوا الشعب التتارى واتصلوا به اتصالا مباشرا • ومثل هذه الملاحظات كثيرة فى الأدب ، لكنها تذوب بلا شك بين عـدد هائل من الصفحات المختلفة التى تحمل فى أطوائها (أو طياتها) نقيضا لذلك •

النتائج التى توصل اليها الكاتب

ان هدف هذا البحث هو دراسة أصول الشعب التتارى الحديث • واذا تعرضنا لبعض القضايا الاثنوجينيزية فلم يكن ذلك الا فى ضوء دراستنا لتسمية « التتار » • وتاريخ أسماء الشعوب ليس تاريخا لأصـــول الشعوب ، وعلى الرغم من ذلك يلعب الأول دورا مهما فى تحديد الأخير • وقد تكون أسماء الشعوب خاطئة وقد تكون حقيقية ، فهى يمكن أن تتغير أو تتبدل • ويمكن أن تتغير معانى الأسماء نفسها ، لكن هذا لا يشترط تغيير هوية الشعب الذى يصبح حاملا لهذا الاسم • أما تغيير الاسم باسم آخر فيؤدى الى صعوبات وتعقيـدات • وفى هذه الحالة قد تؤدى التسمية الخاطئة الى تشويه تاريخ الشعب وأصوله • ونجد المثل الكلاسيكى لهذه الظاهرة فى القضية التى تناولناها فى هذا الكتاب والتى كانت تدور حول تسمية « التتار » • وليست تسمية « التتار » بأصولها وجذورها الا لقبا تم فرضـــه غصبا على البولجار بسياســة النظام القيصرى العنصرى ـ الاستعمارى ومفكريه • لقد كان تلفيق هذا الاسم ثم فرضه على البولجار يرمى الى القاء الغبار فى عيون الجماهير الشعبية لتبرير عملية النهب والاستبداد بالشعب البولجارى ، والى اشعال نار العداوة بين الشعوب كوسيلة لشغل أنظار الجماهير الكادحة عن القضايا الاجتماعية ومنع تأثير الآراء السياسية والاجتماعية الجديدة عليهم •

(*) Fuks K. : Kazanskiye tatari v statisticheskom i etnograficheskom otnosheniyah., Kazan., 1844., s. 21.

وقد فرضت هذه التسمية كلقب على كل شعوب شرق روسيا والقوقاز تقريبا ، وأطلقت « المخطوطات الروسية اسم « التتار » على البولفتسي وحتى البتشينيج الفداوي والأتراك » (*) الذين عاشوا في روسيا الكييفية وسهوب روسيا الجنوبية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين •

أما الاسم الحقيقي لتتار منطقة نهر الفولجا وأورال فبولجار • ومهما حاولت التقاليد أو الأسانيد أو الأدلة اثبات اسم التتار بأنه اسم حقيقي للشعب ، فهذا يخالف الواقع التاريخي وهوية الشعب نفسه ، ويؤدي الى تشويه تاريخه الحقيقي وأصوله • ونجد هذه التسمية التي فرضت على البولجار كرسبالة لالقاء الغبار في عيون الجماهير الشعبية ، حتى استقرت وأصبحت بمثابة التسمية الحقيقية ، تسبب أو تشكل اهانة كبرى لمشاعر وفكر هذا الشعب حتى الآن • ويشير المؤرخ السوفيتي المشهور « جوميلوف » الى أن « الأحكام المسبقة التي ظهرت في يوم كآراء ثم اتخذت فيما بعد كحقائق مطلقة ، من أخطاء فادحة تعمل على افساد التفكير العلمي • أما تقديس القدامى وتقاليدهم فيشل الحركة النقدية ، ويستقر الرأي الكاذب الذي يؤدي الى تشويه الحقائق التاريخية » (**) • وهذا ما رأيناه في تاريخ تسمية التتار •

ونطلب من المؤرخين والباحثين في العلوم الاجتماعية ومؤلفي الكتب التعليمية في التاريخ وعلوم أخرى تحديدا أدق للمفاهيم والمصطلحات حول تاريخ الشعوب وأسمائها ، وخاصة في مسائل صعبة ومعقدة كأصول تسمية « التتار » وقضية الشعب التتاري الحديث ، ويجب عليهم أن يقدموا تفسيرا علميا للأخطاء التاريخية المختلفة بسبب هذا المصطلح غير الدقيق ، وأن ينبهوا القارىء حتى لا يقع في هذه الأخطاء •

(*) Entsiklopedicheskiy slovar Granta. t. 41., ch 7., stolb. 58.

(**) Gumilev L.N. : Poiski vimishlennogo tsarstva. M., 1970., s. 279.

خلاصة القول

هذا البحث الذى استغرق سنين طويلة من حياة الكاتب وجهده . قد تمت كتابته وعرضه للنشر منذ عشر سنوات مضت • ومن خلال تلك الفترة تلقى الكاتب مئات الرسائل من القراء التى كانت تشير الى أن تسمية « التتار » تؤخذ بمفهوم الغزاة المغول فى كل أرجاء الاتحاد السوفيتى ، وحتى بعض التتار الذين نراهم اليوم ، ينسبون أنفسهم الى الامبراطورية الذهبية تحت تأثير الصحافة ووسائل الاعلام التى قدمت كثيرا من الموضوعات والبرامج حول ذلك الموضوع • وكانت كل رغبات القراء تتفق فى أن يتم نشر هذا البحث بأسرع وقت ممكن ليكون فى متناول الجميع •

وما أن نشر هذا البحث حتى ظهرت على صفحات الجرائد والمجلات مقالات تدور حول تاريخ أصول الشعب التتارى الحديث ومسائل أخرى متصلة بتسمية الشعب • وهذه المقالات المنشورة تتفق مع ملاحظات الكاتب ونتائج بحثه ، لكن هذه المقالات لا تعد بحثا علميا لهوية الشعب التتارى الحديث وتسميته ، وانما هى مجرد طرح لبعض المسائل التى توضح جانبا أو آخر من أصول التتار •

وقضية هوية الشعب التتارى الحديث وتسميته تحتوى على تاريخ معقد وطويل حيث تتراكم طبقة فوق طبقة الملاحظات القيمة مع الأخطاء والمبالغات والآراء التى ترمى الى أغراض معينة ، وكل هذا لا يتصل بالانجازات العلمية لسنين مضت أو سعة اطلاع المؤلفين فحسب ، بل يتصل أيضا بآرائهم السياسية والأيديولوجية • ونجد السياسيين والأيديولوجيين هم الذين أدخلوا تناقضات كثيرة فى قضية هوية الشعب التتارى الحديث وكل ما اتصل بتسميته • وهناك أسباب أخرى وقفت حجر عثرة أمام حل القضية ، ومن أهمها سيطرة الحاكم المطلقة وسنوات الركود حين أصبحت كل كلمة جديدة فى مسألة القوميات تثير الحذر ورد الفعل السلبى • ودليل على هذا عرقلة نشر هذا الكتاب لعدة سنين •

ومع تقديم هذا البحث يرجو المؤلف من القارىء أن يأخذ فى الحسبان ما يلى : لقد حاول المؤلف أن يجمع فى بحثه كل الأعمال والأبحاث المتصلة بقضية هوية تتار اليوم وتسميتهم ، ويقوم بتحليلها وعرض التناقضات فيها • كما حاول المؤلف تقديم رأيه الخاص تجاه القضية أو تأييد هؤلاء

الذين يوافقهم فى الملاحظات والاستنتاجات • ومن أجل ذلك كله قام الكاتب بعرض نتائج الأبحاث التاريخية واللغوية الاتنوغرافية والأدبية ، اذ أنه يرى أن مثل هذه القضية المعقدة كهوية الشعب التتارى الحديث وتسميته يصعب حلها الا بهذا العرض الشامل الموسع الذى يحتوى على تخصصات مختلفة •

ويرى الكاتب أنه من الواجب أن يقول انه لا يدعى حقيقة مطلقة ، وانما حاول عرض وحل جميع الجوانب المتصلة بالمسائل المطروحة ، لأن من حق كل مؤلف أن يفهم القضية التى يطرحها للمناقشة ، ويفسرها بوجهة نظره الخاصة •

ان الكاتب شاكر سلفا لكل ملاحظات القراء وانتقاداتهم واقتراحاتهم ورغباتهم التى سـوف يستفيد منها بلا شـك فى أبحاثه القـادمة • ويرجـو الكاتب أن يفهمه القـارىء فهما صحيحا • والكاتب لا يقترح أن يتم تغيير اسم التتار الى اسم البولجار ، وفى الوقت نفسه لا يريد أن يبقى اسم التتار بمفهومه السائد • وحين ينتهى القارىء من قراءة هـذا الكتاب سيدرك بنفسه مدى الصعوبات والخسائر التى سيؤدى اليها تغيير اسم الشعب من ناحية ، وبقاء اسم « التتار » ملتصقا به من ناحية أخرى • ومن الصعب أن نضمن فى المستقبل أن اسم « التتار » سيبطل استخدامه بالمعنى المشوه والكريه الذى أشرنا اليه فى هذا البحث ، لأن اذا تذكرنا عبارة العالم آينشتاين يمكن أن نقول : قد يكون تفتيت الذرة أمرا أسهل وأهون من القضاء على الخرافات التى استقرت فى وعى الملايين من البشر تجاه التسمية المذكورة •

شرح وتعليق

١ ــ جنكيز خــان (Chingis Han) :

حاكم الدولة المغولية وقائد جيوشها ، اسمه الحقيقى « تيموتشين » (Timuchin) ، فاز بلقب « جنكيز خان » أى « ملك البحار » عقب توحيد القبائل المغولية تحت لوائه • (كلمة جنكيز خان مشتقة من اللغة التركية حيث « دنكيز » تعنى البحر و « خان » ــ الملك) •

انظر : Kichanov Y. I. : Jizn Timuchina dumavshego pokorit mir., M., 1973.

٢ ــ باطى (Bati, Batu) :

باطوخان (١٢٠٨ ــ ١٢٥٥ م) حفيد جنكيز خان ، تم فى عهده تأسيس الامبراطورية الذهبية التى امتدت من نهر الارتيش (Irtish) حتى نهر الدانوب •

انظر : Grekov B. D., Yakubovskiya, A. Y. : Zolotaya Orda i yeyo padeniye., M-L., 1950.
Safargaliyev M. G. : Raspad Zolotiy Ordi., Saransk 1960.

٣ ــ البولجــــار (Bulgar) :

من أسرة الشعوب التركية ، قد ذكرتهم المصادر العربية باسم بلغار نهر ايدل (الفولجا حاليا) ، ويطلق عليهم الآن اسم التتار •

انظر : Smirnov A. P : Voljskiye bulgari., M., 1951.

٤ ــ العوامل الأيديولوجية :

اسم شعب مرتبط بماضيه والحكم الذى تصدره الشعوب عليه يرتبط باسمه • وعلى سبيل المثال اذا قام أعداء المغول بتأليف كتب عنهم فمن الطبيعى أن تحمل هذه الكتب صفات سلبية سوف توجه ضدهم كسلاح أيديولوجى ، ومن هنا يصبح الاسم عاملا ايديولوجيا •

٥ ـ تتارســتان :

احدى جمهوريات روسيا الاتحادية تقع فى وسط نهر الفولجا بأوربا الشرقية ، عاصمتها مدينة قازان ·

٦ ـ بولجاريا (Bulgariya) :

جمهوريا تتارستان حاليا ·

٧ ـ التشـوفاش (Chuvash) :

السكان الأصليون للجمهورية التشوفاشية فى روسيا الاتحادية · من حيث الشكل الانثربولوجى يجمعون بين العنصر الأوربى والمغولى ، يتحدثون اللغة التشوفاشية ، ديانتهم المسيحية · وفق رأى عدد كبير من العلماء لعب البولجار دورا كبيرا فى تكوين الشعب التشوفاشى ·

انظر : Kahovskiy V. F. : Proishojdeniye chuvashskogo naroda., Cheboksari. 1965.

٨ ـ سـوفار (Suvar) :

احدى مدن دولـة البولجار فى حوض نهر الفولجـا ، ذكرت فى المصادر التاريخية منذ القرن العاشر الميلادى وهى فترة ازدهارها · وكانت لهذه المدينة علاقات تجارية نشطة مع ايران وخوارزم وبيزنطة وروسيا وجورجيا ، وتعرضت للتدمير فى القرن الرابع عشر ·

انظر : Smirnov A. P. : Voljskiye bulgari. M., 1951.
Smirnov A. P. : Suvar., M., 1941.

٩ ـ بولجار (بلغار فى المصادر العربية) :

عاصمة دولة البولجار ، تعود بداية تعميرها الى النصف الثانى من الألف الأول الميلادى · وأصبحت المدينة من أهم المراكز التجارية منذ القرن العاشر الميلادى ، وبدأ ذكرها يتردد منذ ذلك الوقت فى المصادر الشرقية ، وتعرضت للتدمير الشامل أثناء الحملة الروسية فى القرن الخامس عشر ·

انظر : Smirnov A.P. : Voljskiye bulgari., M., 1951.
Shpilevskiy S.M. : Drevniye goroda i drugiye bulgarskiye pamyatniki v Kazanskoy gubernii., Kazan., 1951.

١٠ ــ الاثنونيميا (Ethnonimiya) :

(من اللغة اليونانية حيث كلمة « ethnos » تعنى القبيلة أو الشعب و« onima» ــ الاسم أو التسمية) فرع من علم الأنوماستك .(Onomastika) يدرس أسماء الشعوب والعشائر والقبائل وغيرها من المجموعات البشرية ، وتبحث فى تاريخ أسماء الشعوب واستخداماتها وانتشارها ووضعها فى أيامنا هذه • وتلعب نتائج الأبحاث فى علم الاثنونيميا دورا مهما فى حل بعض القضايا التاريخية التى تدور حول أصول الشعوب ولغاتها ، لأن دراسة أسماء الشعوب تتيح لنا فرصة تتبع تطور الاسم وتفسير جذوره • كما تستخدم نتائج بحوت الأثنونيميا فى الاثنوغرافيا والديموغرافيا والتاريخ وعلم اللغة والأنثربولوجيا والآثار أى العلوم التى تبحث الشعوب والتجمعات البشرية من وجهات نظر مختلفة ، واتجاه هجرات الشعوب ، والتأثير والتأثر المتبادل من ناحية اللغة والثقافة • وتوفر لنا أسماء الشعوب ، كمصطلحات قديمة ، معلومات تاريخية ولغوية قيمة •

انظر :

Etnografiya imyon., M., 1971.
Popov A. I. : Nazvaniya narodov SSSR., L., 1973.
Trubachev O. N. : Ranniye Slavyanskiye etnonimi., « Voprisi yazikoznaniya » — 6., 1973.

١١ ــ المديار (Madyar):

هذا الاسم يطلقه المجر على أنفسهم •

١٢ ــ الاوفار (Uvar) :

شعب كان يسكن مناطق أوربا الشرقية فى القرون الوسطى • ولا يوجد الوفاق بين العلماء حتى الآن حول أصول ذلك الشعب ، اذ يرى فريق منهم أنهم من الجنس السلافى ، ويرى فريق آخر أنهم ينحدرون من الشعوب الأوغرو ــ فينية ، ويرى عدد كبير منهم أنهم من الشعوب التركية •

١٣ ــ الخازار (Hazar) :

القبائل التركية التى ظهرت على مسرح التاريخ فى أوربا الشرقية فى القرن الرابع الميلادى ، واستطاعت تكوين دولة لهم فى القرن السابع الميلادى •

انظر :

Artamonov M.N. : Istoriya hazar., L., 1962.

١٤ ـ الميشـــار (Mishar) :

شعب ينحدر من البولجار ، ويسكن حوض نهر الفولجا وجمهورية باشكيريا بروسيا الاتحادية .

١٥ ـ الســـوفار :

أهل مدينة سوفار السابق ذكرها .

١٦ ـ روبروك (Rubrouck, Roebroeck, Rubruquis) :

الرحالة الأوربى ، توفى فى عام ١٢٩٣ م . تولى الاشراف على البعثة الدبلوماسية التى أرسلها ملك فرنسا «لودفيك التاسع» الى بلاد الشرق. وقام روبروك بزيارة بلاد فلسطين وبيزنطة وشبه جزيرة القرم وسهوب نهر الدانوب وآسيا الوسطى ومنغوليا ، وترك لنا فى تقاريره عن تلك البلاد المادة التاريخية والجغرافية والاثنوغرافية لها .

انظر : Farpini. J. : Istoriya Mongolov., M., 1957.

١٧ ـ الخـــان :

(كلمة تركية بمعنى الحاكم) لقب الحاكم الذى استخدمه الأتراك والمغـول .

١٨ ـ الأورالتشودى (Uralchudi) :

اسم أطلقه الروس فى المخطوطات القديمة على الاستون (شعب جمهوريا استونيا على بحر البلطيق) وعلى القبائل الأوغرو ـ فينية القريبة لهـــم .

١٩ ـ الهـــون

وباليـونانية « Hunnoi » وباللاتينية « Hunni, Chunni » قبائل تركية موطنها آسيا الوسطى . بدأت هجرة هذه القبائل صوب الغرب فى القرن الرابع الميلادى التى اصطحبت معها حروبا كثيرة سجلت فى الوثائق التاريخية .

انظر : Thompson E. A. : A history of Atilla and the Huns. Oxf., 1948.

Altheim F. : Geschichte de Hunnen., Bd 1-4, B., 1757-62.

Inostransev K. A : Hunni i Gunni., L., 1926.

٢٠ ـ الصرمات :

(باللاتينية ـ Saımatac) التسمية العامة للقبائل الناطقة بالفارسية التى انتشرت بين نهرى الفولجا والدانوب فى القرن الثالث الميلادى ·

انظر : Abramova M. P. : Sarmatskiye pogrebeniya Dona i Ukıғyini 2v do noe. — 1v do n.e. « Sovetskaya arheilogiya » — 1., 1961.

Smirnov K. F. : Savromati. Ranneya istoriya.

Kultura sarmatov., M., 1964.

٢١ ـ الآلان (Alan) :

القبائل الايرانية التى تميزت بين قبائل الصرمات · ويعد الاوسيتين فى القوقاز سلالة تلك القبائل ·

انظر : Vaneev Z. N : Srednevekovaya Alaniya., Staliniri., 1959.

Kuznotsov V. A. : Alanskiye plemena Severnogo Kavkaza., M., 1962.

٢٢ ـ القبائل الأغوزية أو الغز :

اتحاد القبائل التركية التى هاجر جزء منها تحت ضغوط القرغيز الى الصين حيث تغير اسمهم الى الأويغور · وفى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ظهر على مسرح الأحداث التاريخية اتحاد القبائل الأغوزية فى حوض بحر القزوين ومنطقة الأورال ، وتكونت مملكتهم فى حوض نهر السيحون التى تعرضت للتدمير من القبجاق ·

ومنذ ذلك الحين هاجر جزء منهم الى سهوب روسيا الجنوبية ، واتجه جزء آخر تحت قيادة « سلجوق » الى الشرق الأوسط حيث أسسوا دولة لهم · وقد لعبت القبائل الأغوزية دورا أساسيا فى تكوين بعض الشعوب مثل التركمان والأذربيجان والأتراك والقراقلباق وغيرها ·

انظر : Hamilton J. R. : Les Ouighours a l'epoque des Cing dynastics d'apres les documents Chinois., P. 1955.

Cahen C. T. : Pre-Ottoman Turkey., L., 1968.

Laszlo F. : Die Tekuz Oguz und die Kokturken., « Analecta Orientalia" Bd 1., Bdpst. 1942.

Bartold V. V. : Guzz., t 5., M., 1968.

٢٣ ـ شـــومر :

شعب قديم عاش فى الألف الثالث قبل الميلاد فى منطقة جنوب دولة العـراق حاليا ، وضمت بلاده الى الدولة الأكادية فى عـــام ٢٤ قبـل الميـــلاد ٠

انظر : Falkestein A. : Das Sumerische., Leiden., 1959 :

٢٤ ـ رموز كتابة « أ » و « ب » :

هذه الرموز متشابهة من حيث الشكل ، لكنها تختلف من حيث التركيب ، ومن ثم قسمها العلماء الى مجموعتين ٠

٢٥ ـ بولينيزيا (Polynesiya) :

جزر المحيط الهادىء التى تشمل جزيرة تونجا (Tonga) وفينكس (Feniks) وتوالو (Tuvalu) وكوك (Cook) وساموا (Samoa) ولاين (Line) وجزر ماركيز (Marquesas) ونيوزيلاندا (New Zealand) وتوامـاتو (Tuamotu) واوسترال (Austral) ٠

٢٦ ـ اللغـة الألتائية :

لغة شعوب منطقة « ألتاى » بروسيا الاتحادية التى تضم الى نفسها اللغة القرغيزية والقبجاقية ، وهى من أسرة اللغات التركية ٠

انظر : Baskakov N. A. : Altayskiy Yazik., M., 1958.

Vervizkiy V. I : Slovar altayskogo, aladagdkogo narechiy turkskogo vazika., Kazan 1884.

٢٧ ـ الفينية ـ الأوغورية :

من الأسرة اللغوية الأورالية وتنقسم الى مجموعة لغات دول البلطيق وفنلندا والمجموعة الســامية (المارى والموردفا والـكومى والأودمورت) والمجموعة الأوغورية (المجر والمانسى والخانطى) ٠ وتنتشر هذه المجموعات من شمالى شرق أوربا حتى جبال الأورال ٠

انظر : Collinder V : Survey of the Uralic languages : 2ed., Stockh., 1969.

Comparative grammar of the Uralic languages., Stockh., 1955.

Decsy G. : Einfuhrung in die finnish-ugrische sprarh wisseschaft., Wiesbaden. 1965.

Haidu P. : Finnugor nepek es nyelvek., Bdpst. 1962.

Itkonen E. : Die laut und Formenstruktur der finnisch — urgischen Grund sprache., « Ural — Altaishe Jahrbucher » 1962., Bd 34 s. 187-210.

٢٨ ــ ميــلا (Mela) :

(القرن الأول الميلادى) رحالة من دولة روما ، صــاحب المؤلف الشهير فى الجغرافيا « De Chorographia » الذى يتكون من ثلاثة أجزاء • وقد نشر فى فرنسا وألمانيا وايطاليا فى فترة تمتد بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر الميلاديين •

انظر : Biokhaus, Efron : Ensiklopedicheskiy slovar : t. 9., San-Peterburg., 1896.

٢٩ ــ بليني (Gaius Plinius) :

عالم ومؤرخ وأديب من دولة روما ، لم تصل الينا مؤلفاته التاريخية، لكنها استخدمت فى مؤلفات « تاتسيت » (Tacitus)

٣٠ ــ بانونيــا (Panonía) :

احدى مقاطعات امبراطورية روما التى تقع شمالى دولة المجر حاليا •

٣١ ــ المــارى (Mary) :

السكان الأصليون للجمهورية المارية بروسيا الاتحادية ، كان يطلق عليهم من قبل اسم « تشيريميس » ، يتحدثون اللغة المارية ، وهى احدى لغات المجموعة الفينية ــ الأوغورية •

انظر : Kozlova K. L. : Etnografiya narodov Povoljya : M., 1964.

Proishojdeniye Mariyskogo naroda., Ioshkar-Ola., 1967.

٣٢ ــ الأودمــورت (Udmurt) :

الســكان الأصــليون للجمهورية الأودمورتية بروســيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة الأودمورتية ، ديانتهم المسيحية • وقد ورد ذكرهم فى

المخطوطات الروسية فى القرنين الرابع عشر والسادس عشر تحت اسم « آر » و « أوتاك » ، وأطلق عليهم فيما بعد اسم « فوتك » الذى استمر استخدامه حتى عام ١٩٣٢ م ٠

انظر : Buch M. : Die Wotjaken. Eine ethnologische Studie., Helsingfors., 1882.

٣٣ ـ الأراضى الايمينكوفية :

منطقة قرب مدينة قازان ، اكتسبت هذه التسمية من اسم القرية التى اكتشفت فيها الآثار القديمة ٠

٣٤ ـ قاما (Kama) :

فرع من نهر الفولجا ، طوله ١٨٠٥ كم ٠

٣٥ ـ اسباروح (أو اسباريخ) :

الحاكم والقائد البلغارى الذى هاجر مع جزء من القبائل البلغارية تحت ضغوط الخازار الى نهر الدانوب فى القرن السابع الميلادى ، حيث استطاع اخضاع القبائل المحلية ، وتكوين الدولة التى اعترفت بها بيزنطة فى عام ٦٨١ م ٠

انظر : Nikitin SKA. : Obrazovaniye bolgarskogo naroda : « Vestnik BGU » — 1., 1952.

٣٦ ـ الثـــورة :

الثورة البولشيفية التى قامت فى روسيا فى عام ١٩١٧ م ٠

٣٧ ـ البولوفتسى (Polovtsy) :

أى القبجاق (القبائل التركية التى ظهرت على مسرح التاريخ فى العصور الوسطى) ٠ وكان القبجاق على صلة بالروس والأوربيين الغربيين، وهؤلاء جميعا لم يعرفوا كلمــة « قبجاق » ، فكــان الروس يســـمونهم « بولوفتسى »،أما الأوربيون فكانوا يطلقون عليهم اسم «قومان» (Comans) .

انظر : Pletneva S. A. : Pechenegi torki i polovtsy v yujnorusskih stepyah., v sb. Materiali issledovaniya po arheologii SSSR — 62, M. 1958.

٣٨ ــ قالقــا (Kalka) :

فــرع من نهر الفالمينوس بجمهورية أوكرانيا ، يطلق عليه الآن اسم « قالتشيك » ٠

٣٩ ــ الموردفا (Mordva)

السكان الأصليون للجمهورية الموردوفية فى روسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة الموردوفية وهى احدى لغات المجموعة الفينية ــ الأوغورية ، ديانتهم المسيحية ٠ قد ورد ذكرهم لأول مرة فى وثائق القرن السادس الميلادى تحت اسم « موردينس » (Mordens) ٠

انظر : Ocherki istorii Mordovskoy ASSR, t. 1., Saransk., 1955.

٤٠ ــ البــورتاس (Burtas) :

اتحاد القبائل التى كانت تسكن ضفاف نهر الفولجا بين مدينتى « سيزران » (Sizran) و « فولجوجراد » (Volgograd) حاليا ٠ كانت تحت سيطرة الخازار منذ القرن السابع الميلادى ، ثم خضعت للروس فى نهاية القرن العاشر الميلادى ٠

انظر : Alihova A. E. : Kvoprosu o burtasah., « Sovetskaya etnografiya » — 1., 1949.

٤١ ــ فياتكــا (Vyatka) :

فرع من نهر قاما ، يمر بمدينة « كيروف » وجمهورية تتارستان ٠

٤٢ ــ قازانكــا (Kazanka) :

نهير تقع عليه مدينة قازان ــ عاصمة جمهورية تتارستان بروسيا الاتحــادية ٠

٤٣ ــ ألو ــ محمــد :

أحد أمراء الامبراطورية الذهبية ٠

٤٤ ــ الباليوغرافيــا :

علم يدرس تاريخ الخط وتطور رموزه وأشكاله ، كما يدرس الآثار المكتوبة بهدف قراءتها وتحديد مكانها وزمانها ومؤلفيها ٠

٤٤ ـ الفاريباج :

(من كلمة اسكاندينافية « vaeringjar ») وهم الجنود النورمانديون الذين كانوا فى خدمة حكام بيزنطة · وفى الفترة التى تمتد بين القرنين التاسع والحادى عشر الميلاديين كان عدد غير قليل منهم فى خدمة الأمراء الروس ، واشتركوا فى الحروب ضد الشعوب والبلاد المجاورة ، وذابوا فيما بعد بين الروس ·

انظر : Grekov B. D. : O roli varyagov v istorii Rusi. « Noviye vremena » — 30., 1947.

Shushavin V. D. : O sushnosti i formah sovremennogo normanizma. « Voprosi istorii » — 8., 1960.

٤٦ ـ النورمانديون :

(من كلمة اسكاندينافية « northman » ـ بمعنى انسان المناطق الشمالية) · هذا الاسم أطلق على بعض الشعوب الاسكاندينافية فى فترة تمتد بين القرنين الثامن والحادى عشر الميلاديين ·

٤٧ ـ التادجيك (Tadjik) :

شعب جمهورية تاجيكستان الذى أطلق على نفسه اسم « todjik » تسكن أعداد كبيرة منهم شمال أفغانستان · يتحدثون اللغة التادجيكية وهى احدى لغات الأسرة الايرانية ، ديانتهم الاسلام ، معظمهم سنيون ·

انظر : Gafurov B. G : Tadjiki., M., 1972.
Bartold V. V. : Tadjiki. Istorischeskiy ocherk., t 2., 1963.

٤٨ ـ القرغيز (Kirgiz) :

شعب جمهورية قرغيزستان ، من المنظور الأنثربولوجى ينتمون الى الشكل المغولى الذى يخص شعوب سيبيريا الجنوبية ، يتحدثون اللغة القرغيزية وهى من أسرة اللغات التركية ، مسلمون ، سنيو المذهب ·

انظر : Abramov S. M. : Kirgizi i ich etnogenicheskoye i istoriko-kulturniye svyazi., L., 1971.

٤٩ ـ الأوزبك (Uzbek) :

شعب جمهورية أوزبكستان ، تسكن أعداد غير قليلة منهم شمال

أفغانستان والصين ، يتحدثون اللغة الأوزبكية وهي احدى اللغات التركية ، مسلمون ــ سنيون •

انظر : Ivanov P. P. : Ocherki po istorii Sredney Azii M., 1958. Narodi Sredney Azii i Kazahstana., t 1., M., 1962.

٥٠ ــ الكــــازاخ (Kazak) :

شعب جمهورية كازاخستان ، كان يطلق عليهم اسم « قرغيز » فى الوثائق الرسمية والكتب الأدبية حتى عام ١٩٢٥ م ، وهذا خطأ • تسكن أعداد غير قليلة منهم فى الصين ومنغوليا وأفغانستان ، يتحدثون اللغة الكازاخية وهى احدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون ــ سنيون •

انظر : Narodi Sredney Azii i Kazahstana., t 2., M., 1963.

٥١ ــ الطــــوفين (Tuvin) :

السكان الأصليون للجمهورية الطوفينية بروسيا الاتحادية ، يطلقون على أنفسهم اسم « طيفالر » • أما الأسماء القديمة التى كانت تطلق عليهم فهى « سايون » ، و « سايوت » ، و « أوريانخاى » ،و « طاننو ــ طوفين » • يتحدثون اللغة الطوفينية (احدى اللغات التركية) ، ديانتهم الشامانية واللامائية • من المنظور الأنثربولوجى ينتمون الى الشكل المغولى •

انظر : Narodi Sibiri., M - L., 1956.

٥٢ ــ الشــــور (Shor) :

شعب يسكن حوض نهر الطوم بشرق روسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة الشورية (من أسرة اللغات التركية) ، ديانتهم الشامانية • من ناحية الأصول والحضارة قريبون من الحاقاس والألتائيين •

انظر : Potorov L. P. : Ocheriki storii., M-1936.

٥٣ ــ الحاقــاس (Hakas) :

شعب ولاية حاقاسيا بشرق روسيا الاتحادية ، ويسكن جزء منهم الجمهورية الطوفينية ، يتحدثون اللغة الحاقاسية (من أسرة اللغات التركية) ، ديانتهم الشامانية •

انظر : Potorov L.P. : Proishojdeniye i formirovaniya hakasskoy narodnosti, Abakan 1957.

٥٤ ــ الألتائيــون :

شعب يسكن ولاية ألتاى بروسيا الاتحادية ، يتحدث اللغة الألتائية (من أسرة اللغات التركية) ٠

انظر : Potorov L.P. : Ocherki istorii Altaytsev., M.-L., 1953.

٥٥ ــ القوميق (Kumuk, Kumik) :

شعب يسكن مناطق القوقاز الجبلية وجمهورية داجستان بروسيا الاتحادية ، تنتمى لغتهم الى المجموعة القبجاقية (من أسرة اللغات التركية)، مسلمون ، قريبون فى صفاتهم الأنثروبولوجية والحضارية من شعوب جمهورية داجستان ٠

انظر : Gadjiyeva S. S. : Kumiki. Istoriko-etnografischeskoye issledovaniye. M., 1961.

Narodi Kavkaza., t. 1., M., 1960.

٥٦ ــ النوغاى (Nogay) :

شعب يسكن الجمهوريات القوقازية بروسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة النوغائية (من أسرة اللغات التركية) ، مسلمون ــ سنيون ٠

انظر : Narodi Kavkaza — 1., M., 1960.

٥٧ ــ البلكــار (Balkar, Malkar) :

شعب تتركز كثافته السكانية فى الجمهورية الكباردينية ــ البلكارية (القوقازية) بروسيا الاتحادية ، لغتهم اللغة البلكارية (من أسرة اللغات التركية)، مسلمون ــ سنيون ٠

انظر : Alekseeva Y. P. : Karachayevssi i Balkartsi drevniy narod kavkaza., Cherkessk., 1963.

Ocherki istorii Kavkazkogo naroda., Nalchik, 1961.

٥٨ ــ القراتشــاى (Karachay) :

أو « قراتشايلى » ، شعب قريب من البلكار ، يسكن الجمهورية القراتشائية ــ الشركسية (القوقازية) بروسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة القراتشائية وهى احدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون ــ سنيون ٠

انظر :

Alekseeva Y. P. : Karachayevtsi i Balkartsi drevniy narod Kavkaza., Cherkesk 1963.

Ocherki istorii Karachayevo-Cherkessii., * 1., Stavropol. 1967.

٥٩ ــ درجافين (Deriavin) :

(١٧٤٣ ــ ١٨١٦ م) من أعظم شعراء روسيا القيصرية ، اشترك في الانقلاب السياسي الذى أدى الى اعتلاء « كاترين الثانية » العرش • وقد تدرج في المناصب السياسية وله دور مهم في الحياة الصحافية في ذلك الوقت •

انظر :

Blagoy D D. : Derjavin., M., 1944.

Serman I. Z. : Derjavin., L., 1967.

٦٠ ــ بليخانــوف (Plehanov) :

(١٨٥٦ ــ ١٩١٨ م) من مؤسسي التيار الاشــــتراكي في الأدب الروسي ، له مؤلفات في التاريخ والسياسة والفلسفة ، لعب دورا مهما في حياة الصحافة الروسية •

انظر : Chagin B. A., Kurbatova I. N. : Blehanov., M., 1973.

٦١ ــ كانتيمير (Kantemir) :

(١٧٠٨ ــ ١٧٤٤ م) شاعر وناقد ، عمل في السلك الدبلوماسي وكان يجيد عدة لغات • يعد مؤسسا للتيار الواقعي في الأدب الروسي الحــديث •

انظر :

Timofeev L. I. : Ocherki teorii i istorii russkogo stilha., M., 1958.

٦٢ ــ تيميريازيف (Timiryazev) :

عالم ، مؤسس الفيزيولوجيا النباتية في روسيا •

انظر : Novikov S. A. : K. A. Timiryazev., M., 1948.

٦٣ ـ رحمـــانينوف (Rahmaninov) :

(١٨٧٣ ـ ١٩٤٣م) مؤلف موسيقى ، عازف بيانو وقائد أوركسترا من أعظم الموسيقيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين •

انظر : Bertensson S., Leyda J. : Sergey Rahmaninov. A lifetime in musik., NY., 1956.

٦٤ ـ كارامزين (Karamzin) :

(١٧٦٦ ـ ١٨٢٦ م) مؤرخ وأديب ، مؤسس التيار الرومانسى فى الأدب الروسى الحديث •

انظر : Istoriva russoky literaturi 19 v.
Bibliographischeskiy ukazatel., M.-L., 1962.

٦٥ ـ جريبويدوف (Griboyedov) :

(١٧٩٥ ـ ١٨٢٩) أديب ودبلوماسى ، مؤسس التيار الواقعى فى الأدب المسرحى الروسى •

انظر : Istoriya russkoy literaturi 19v.
Bibliograficheskiy ukazatel., M-L., 1962.
Petrov S. : Griboyedov., M., 1954.

٦٦ ـ سالطيقوف ـ شيدرين (Saltikov-Shedrin) :

(١٨٢٦ ـ ١٨٨٩) كاتب التيار الديموقراطى ، تحتل أعماله مكانة خاصة فى الأدب الروسى •

انظر : Makashin S. A. : Saltikov Shedrin. Bibliografiya : t. 1., M.. 1951.
Turkov A. : Saltikov Shedrin., M. 1915.

٦٧ ـ بونين (Bunin) :

(١٨٧٠ ـ ١٩٥٣) من أبرز كتاب التيار الواقعى فى الأدب الروسى، هاجـر الى فرنســا عقب قيام الثــورة الاشتراكية ، نال جائزة « نوبل » التقديرية فى عام ١٩٣٣ م •

انظر : Afanasyev V.N : I. A. Bunin. Ocherk tvorchestva : M., 1966.

٦٨ ـ كوبرين (Kuprin) :

(١٨٧٠ ـ ١٩٣٨) كاتب يمثل المدرسة الواقعية النقدية فى الأدب الروسى ، مثلت بعض أعماله فى السينما •

انظر : Afanasyev V. : A. I. Kuprin. Krotiko-biograficheskiy ocherk, M., 1960.

٦٩ ـ تشادايف (Chadayev) :

(١٧٩٤ ـ ١٨٥٦ م) المفكر الروسى الذى نادى بالاتجاه الى الغرب، اذ رأى فى ذلك وسيلة لنهضة روسيا •

انظر : Lebedev A. A. : Chadayev., M., 1965.

٧٠ ـ دوستويفسكى (Dostoyevskiy) :

(١٨٢١ ـ ١٨٨١ م) من أبرز كتاب المدرسة الواقعية فى الأدب الروسى ، وقد نالت رواياته السيكولوجية شهرة عالمية •

انظر : Kaufman W. : Existentialism from Dostoyevskiy to Sartre, Cleveland., N.Y., 1968.

Kirpotin V.Y. : F.M. Dostoyevskiy. Tvorcheskiy put., M. 1960.

٧١ ـ سيولكوفسكى (Tsiolkovskiy) :

(١٨٥٧ ـ ١٩٣٥ م) عالم الطيران والصواريخ •

انظر : Arlazorov M. S. : Tsiolkovskiy., Tul. 1977.

٧٢ ـ راديشيف (Rad.shev) :

كاتب وفيلسوف ، له دور مهم فى تطوير التيار الواقعى فى الأدب الروسى •

انظر : Orlov V.N. : Radishev. Russkaya literatura. L., 1952.

٧٣ ـ داشكوفا (Dashkova) :

(١٧٤٣ ـ ١٨١٠) كاتبة ، اشتركت فى الانقلاب السياسى الذى أدى الى اعتلاء « كاترين الثانية » العرش •

انظر : Krasnobayev B. I. : Glava dvuch akademiy. « Voprosi istorii » — 12, 1971.

٧٤ ـ ميلوكوف (Milukov) :

(١٨٩٥ ـ ١٩٤٣ م) كاتب ومؤرخ ، اشترك فى النشاط السياسى ضد الثورة الاشتراكية ، هاجر الى لندن ثم باريس حيث نادى بالحرب ضد الحكومة السوفيتية .

انظر : Shapiro A.L. : Rus^kaya istoriografiya v period imperia-lizma., L., 1962.

٧٥ ـ بنايف (Panayev) :

(١٨١١ ـ ١٨٦٢ م) كاتب ، وصف فى مؤلفاته الحياة الأدبية فى روسيا فى بداية القرن التاسع عشر .

انظر : Istoriya russkoy literaturi 19 v. Bibliografischeskiy ukazatel., M-L., 1962.

٧٦ ـ كوجوشيف (Kuguchev) :

(١٨٦٣ ـ ١٩٤٤) أحد قادة الثورة الاشتراكية فى روسيا ، عقب نجاح الثورة تدرج فى المناصب الحكومية العليا .

انظر : Sheynis Z : Povest o knyaze Kugusheve., « Yunnost » — 6., 1967.

٧٧ ـ ينيكييف (Yenikeev) :

كاتب سوفيتى ولد فى عام ١٩٠٩ م . تتميز مؤلفاته بدقة تصوير النفس البشرية وبراعة اللغة .

انظر : Mustafin R. : Karyera Zufara Sabitova ., « Drujba narodov » — 10., 1963.

٧٨ ـ تنيشيف (Tenishev) :

(١٨٤٣ ـ ١٩٠٣) عالم الاثنوغرافيا والاجتماع ، مؤسس معهد « تنيشيف » فى بطرسبورج فى عام ١٨٩٦ م .

٧٩ ـ ينجاليتشيف (Yengalichev) :

(١٧٦٩ ـ ١٨٢٩) أديب روسى .

انظر : Brokhaus, Nefron ; Ensiklopedicheskiy slovar., t 11., San. Peterburg, 1896.

٨٠ ـ شيشكوف (Shishkov) :

(١٧٥٤ ـ ١٨٤١) كاتب من أنصار السلفية فى الأدب الروسى .

انظر : Stoyuniv V. Y. : A. S. Shishkov., Istoricheskiye sochineniya — 1., SPb 1880.

٨١ ـ شاخوفسكى (Shahovskiy) :

(١٧٠٥ ـ ١٧٧٧) كاتب روسى من الأسرة الملكية .

انظر : Radishev N. A : Jizn Shahovskogo., M. 1810.

٨٢ ـ ميشيرينوف (Mesherinov) :

قائد الجيش الروسى الذى أشرف على حصار دير « سلوفيتسك » .

انظر : Brokhaus, Nefron : Ensiklopedicheskiy slovar, t 19., San.Peterburg. 1896.

٨٣ ـ اوروسوف (Urusov) :

(١٨٤٣ ـ ١٩٠٠) أديب ومن أبرز رجال القانون .

انظر : Brokhaus, Nefron : Ensiklopedicheskiy slovar., San. Peterburg., 1896.

٨٤ ـ شيريميتيف (Sheremetyev) :

(١٦٥٢ ـ ١٧١٩) قائد الجيش الروسى والدبلوماسى .

انظر : Brokhaus, Nefron : Ensiklopedicheskiy slovar, S. Peterburg. 1896.

٨٥ ـ ستروجانوف (Stroganov) :

(١٧٩٤ ـ ١٨٨٢) قائد الجيش الروسى ورجل السياسة ، اشتهر بأعماله الخيرية ومراعاة الحركة الفنية فى روسيا .

٨٦ ـ أراكتشييف (Arakcheev) :

(١٧٦٩ ـ ١٨٣٤) قائد الجيش الروسى ورجل السياسة ، كان رمزا للرجعية والنظام العسكرى فى الدولة .

انظر : Istoriya SSSR s drevneyshich vremen do nashih dney. t 4., M., 1967.

٨٧ ـ دافيدوف (Davidov) :

(١٧٨٤ ـ ١٨٣٩) الكاتب الروسى .

انظر : Orlov V. M : D. Davidov., M., 1940.

٨٨ ـ جوكوفسكى (Jukovskiy) :

(١٧٨٣ ـ ١٨٥٢) شاعر من مؤسسى المدرسة الرومانسية فى الأدب الروسى .

انظر : Grot Y. K. : Ocherk jizni i poezii Jukovskogo : Spb. San. Peterburg., 1883.

٨٩ ـ شيرينسكى ـ شاهماتوف (Shirinskiy-Shahmatov) :

(١٧٩٠ ـ ١٨٥٣) رجل السياسة ووزير التعليم ، عضو أكاديمية العلوم فى بطرسبورج .

٩٠ ـ اثنونيم :

كلمة مأخوذة من اللغة اليونانية حيث « اثنوث » (ethnos) تعنى القبيلة أو الشعب ، و « أونيما » (Onyma) تعنى الاسم أو التسمية .

٩١ ـ النينتسى (Nentsi) :

شعب يسكن المناطق الشمالية بروسيا الاتحادية التى تمتد من جزيرة « كولسك » حتى نهر اليانيسى (Yenisey) . ويتحدثون اللغة النينتسية وهى احدى لغات المجموعة الأورالية ، ديانتهم الشامانية ، جزء منهم اعتنق المسيحية .

انظر : Chomich L. V. : Nentsi., M-L., 1966.
Narodi Sibiri. M-L., 1956.

٩٢ ـ الاسكيمو (Eskimos) :

شعب يسكن أقصى المناطق الشمالية ، من المنظور الأنثربولوجى ينتمى الى الشكل المغولى .

انظر : Menovnikov G. A : Eskimos., Magadan., 1959.

٩٣ ـ دويتش : Deutsch :

أى الألمان .

٩٤ ـ القره قلباق أو القراقلباق :

السكان الأصليون للجمهورية القراقلباقية ، يتحدثون اللغة القراقلباقية وهي احدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون • من المنظور الأنثربولوجي ينقسمون الى الشكل المغولي والشكل الأوربي •

انظر : Tolstoy S.P. : K. voprosu o prishojdenii karakalpakshogo naroda. V. kn. Kratkiye soobsheniya instituta etnografii AN. SSSR., 2., M-L., 1947.

Jdanko T.A. : Ocherki istoricheskoy etnografii karakalpakov. M-L., 1950.

٩٥ ـ كاليمنتان (Kalimantan, Indonesian. Borneo). :

جزء من جزيرة « بورنيو » (الاندونيسيا) •

٩٦ ـ الكاريللي (Karelli) :

السكان الأصليون لشبه جزيرة « كاريليا » في شمال أوربا الشرقية، يتحدثون اللغة الكاريلية وهي احدى لغات المجموعة الفينية ـ الأوغورية ، جزء منهم يعيش في فنلندا •

٩٧ ـ الباشكير (Bashkir) :

السكان الأصليون لجمهورية باشكيريا بروسيا الاتحادية الذين يطلقون على أنفسهم اسم « باشكورت » • يتحدثون اللغة الباشكيرية وهي احدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون ـ سنيون •

انظر : Narodi Yevropeyskoy chasti SSSR. — 2., M., 1964.
Archeologiya i etnografiya Bashkirii., t 1-2., Ufa., 1962-64.

٩٨ ـ دشت ـ قبجاق :

أي السهوب القبجاقية ، وهذه التسمية نجدها مذكورة لأول مرة عند المؤلف الفارسي ناصر خسرو في القرن الحادي عشر الميلادي ، عندما أتت القبائل القبجاقية من نهر الارتيش وأصبحت جيرانا لمملكة خوارزم • وقد استولى المغول على السهوب القبجاقية في القرن الثالث عشر الميلادي •

انظر : Kudryashev K. V. : Polovetskaya step. M., 1948.

٩٩ ـ الـــلاق (Lak) :

من شعوب جمهورية داجستان بروسيا الاتحادية ، يتحدثون اللغة اللاقية وهى احدى لغات المجموعة القوقازية ، مسلمون ـ سنيون •

انظر : Narodi Kavkaza., t 1., M. 1960.
Narodi Dagestana., M. 1957.

١٠٠ ـ الليزجين (Lezgin) :

(يطلقون على أنفسهم اسم « ليزجيار ») شعب يسكن جنوب ـ شرقى جمهـورية داجسـتان وشـمال جمهـورية أذربيجـان ، يتحدثون اللغة الليزجينية وهى احدى لغات المجموعة القوقازية ، مسلمون ـ سنيون •

انظر : Narodi Kavkaza., t 1., M., 1960.

١٠١ ـ الكاباردين (Kabardin) :

(يطلقون على أنفسهم اسم « أديجى » (Adigey) شـعب تسـكن غالبيته العظمى فى الجمهورية الكباردينية ـ البلكارية بروسيا الاتحادية ، يتحـدثون اللغة الكباردينية وهى احـدى لغـات المجموعة القوقازية ، مسلمون •

انظر : Narodi Kavkaza., t 1, M., 1960.
Istoriya Kabardino-Balkarskoy ASSR., t 1-2., M., 1967.

١٠٢ ـ الخـانطى (Hanti) :

شعب يسكن حوض نهرى الارتيش والأوب بشرق روسيا الاتحادية يتحدثون اللغة الاوغورية ، قريبون من شعب « المانسى » •

انظر : Narodi Sibiri., M-L., 1965.
Sokolova Z.P. : Hanti. « Voprosi istorii » 8., 1971.

١٠٣ ـ سـامويدى :

ترجمة هذه الكلمة من اللغة الروسية تعنى « آكلة أنفسهم » ومن هنا نستطيع تصور كيف كانت هذه الشعوب المقهورة تعانى من اهانة هذه التسميات التى فرضتها عليها سياسة قياصرة الروس الاستعمارية •

١٠٤ ـ باطبرشـــا :

(على عبد الله على / ١٧١٠ ـ ١٧٦٢ م) قائد الثورة الباشكيرية في عام ١٧٥٥ م ، التى نادت الشعوب الاسلامية بالحرب ضد روسيا •

١٠٥ ـ الطنغـــوز (Tunguz) : :

اسم كان يطلق على شعب الافينك في العقود الأولى من القرن العشرين •

١٠٦ ـ التركمـــان (Tungz) :

سكان جمهورية تركمنستان ، يعيش جزء منهم فى أفغانستان وايران وتركيا وفى الدول العربية ، يتحدثون اللغة التركمانية وهى احدى لغات الأسرة التركية ، مسلمون ـ سنيون •

١٠٧ ـ التتارية الفصـــحى :

مستواها اللغوى صعب القراءة للقارىء التتارى اليوم ، لأن اللغة التتارية تعرضت للتنقية من الألفاظ الدخيلة (الفارسية والعربية) فى بداية القرن العشرين •

١٠٨ ـ ســلوفين :

من شعوب دولة يوغسلافيا ، يتحدثون اللغة السلوفينية وهى احدى لغات المجموعة السلافية •

اقرأ فى هذه السلسلة

احلام الاعلام وقصص أخرى	برتراند رسل
الالكترونيات والحياة الحديثة	ى · رادونسكايا
نقطة مقابل نقطة	الدس هكسلى
الجغرافيا فى مائة عام	ت · و · فريمان
الثقافة والمجتمع	دايموند وليامز
تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)	ر · ج · فوربس
الأرض الغامضة	ليستردبل راى
الرواية الانجليزية	والتر ألن
المرشد الى فن المسرح	لويس فارجاس
آلهة مصر	فرانسوا دوماس
الانسان المصرى على الشاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القاهرة مدينة الف ليلة وليلة	أولج فولكف
الهوية القومية فى السينما العربية	هاشم النحاس
مجموعات النقود	ديفيد وليام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نفسى ـ ومنطق	عزيز الشوان
عصر الرواية ـ مقال فى النوع الأدبى	د· محسن جاسم الموسوى
ديلان توماس	اشراف س· بى· كوكس
الانسان ذلك الانسان الفريد	جون لويس
الرواية الحديثة	بول ويست
المسرح المصرى المعاصر	د· عبد المعطى شعراوى
على محمود طـه	أنور المعداوى
القوة النفسية للأهرام	بيل شول أدنبيت
فن الترجمة	د· صفاء خلوصى
تولستوى	رالف ئى ماتلو
ستندال	فيكتور برومبير

رسائل وأحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنر هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع ٠ أدنيكوف
أدب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
احمد حسن الزيات	د٠ نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل أحمد الطائى
فكرة المسرح	فرنسيس فرجون
الجحيـــم	هنرى باربوس
صنع القـــرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضـــارى للانســـان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال ؟	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياســـة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٨٣٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصـــحافة	بيير البير
اثر الكوميـــديا الالهيـــة لدانتى فى الفـــن التشكيلى	الدكتور غبريال وهبه
الأدب الروسى قبـــل الثـــورة البلشـــفية وبعدها	د٠ رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوروبى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعـــاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د. محيى الدين أحمد حسين
نظريات الفيلم الكبرى	تأليف : ج. ج. دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟	طائفة من العلماء الأمريكيين
حرب الفضاء	د. محمد أسعد عبد الرؤوف
ادارة الصراعات الدولية	د. السيد عليـوة
الميكروكمبيـوتر	د. مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضـل
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابرييل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كوسبنى وكينيث هينوج
كتابة السناريو للسينما	دوايت سوين
الزمن وقياسه	زافيلسكى ف.س
اجهزة تكييف الهـواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س . م بورا
مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية	د. عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د. سمبسون و نورمان د. أندرسون
الشارع المصرى والفكر	د. انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت روستو
تبسيط الكيمياء	فرد . س . هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	الان كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونيـة	فريد هـويل شاندرا ويكراما ماسينيج
دراما الشاشة (٢ ج)	حسين حلمى المهندس

الهيروين والايدز	روى روبرتسون
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشـم النحـاس
الكمبيوتر فى مجالات الحياة	د· محمود سرى طه
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لـورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروميتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليـــام بينــر
تربية أسماك الزينة	ديفيـد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)	جمعها : جون ر· بورر وميلتون جولدينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د· صالح رضـا
التغذية فى البلدان النامية	م·هـ· كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د· السيد طه أبو سديره
حوار حول النظامين الرئيسيين للكـــون	جاليليو جاليليه
الارهـــاب	أريك موريس ، آلان هــو
اخنـــاتون	ســيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيســتلر
التــوافق النفسى	توماس أ · هاريس
الدليل البيليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصـــورة	روى أرمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميكائيل البى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقــود	فيكتور مورجان

التحليل والتوزيع الأوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الشساهنامة (٢ ج)	الفردوس الطوسى
الحياة الكريمة (٢ ج)	بيرتون بورتر
كتابة التاريخ فى مصر ق ١٩٠	جاك كرابس جونيور
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد ، كوبريلى
العثمانيون فى أوربا	بول كونر
مختارات من الآداب الآسيوية	اختيار واعداد صبرى الفضل
التمثيل للسينما والتليفزيون	تونى بار
سقوط المطر	نادين جورديمر وآخرون
صـناع الخلود	موريس بيربراير
دليل تنظيم المتاحف	آدامز فيليب
كتب غيرت الفكر الانسانى (٣ ج)	أحمد الشـنوانى
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلى سميث
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
جماليات فن الاخراج	ريجمونت هينر
الكنائس القبطية (٢ ج)	الفريد ٠ ج ٠ بتلر
ترانيم زرادشت	اعداد ٠ د٠ فيليب عطية
النقد السينمائى الأمريكى	ادوارد مرى
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
رحلات فارتيما	الحاج يونس المصرى
التاريخ من شتى جوانبه ٣ ج	ستيفن أوزمنت
مصر الرومانية	نفتالى لويس
السينما الخيالية	بيتر نيكوللز
السينما العربية من الخليج الى المحيط	اعداد : مونى براح وآخرون

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٢٩٦٥

ISBN — 977 — 01 — 3718 — 9

ترد كلمة التتار في كثير من الأعمال الأدبية والعلمية كمرادف للبربرية والهمجية، وهي فكرة نبعت من الخلط بين التتار والمغول الذين اجتاحوا المشرق الإسلامي يوماً بجيوشهم في عصر جنكيز خان وهولاكو ودمروا مدينة بغداد وأحرقوا دور العلم فيها، ثم صنعوا من كتبها جسراً لتمر عليه خيولهم التي نشرت الخراب والدمار في كل مكان.

ويسعى هذا الكتاب إلى توضيح ذلك اللبس بالبحث في أصول الشعب التتاري، ذلك الشعب المسلم الذي عانى الكثير من الاضطهاد في ظل روسيا القيصرية.

ولقد تعرض مؤلف الكتاب نفسه إلى الاضطهاد سنوات طويلة، بل وطرد من وظيفته كأستاذ في جامعة قازان، ومع هذا فقد استطاع بأبحاثه وعمله الدءوب أن يرفع مكانته وينال تقدير الأوساط العلمية حتى أختير عضواً بأكاديمية العلوم في جمهورية تتارستان.

مطابع الهيئة ال